تفسير سورة الذاريات





وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قال شعبة بن الحجاج، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع علياً وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بزَّة، عن أبي الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾؟ قال: الريح قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾؟ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾؟ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ قال: الملائكة. وقد روى في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانيء، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾؟ فقال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل في بيت، فلما برأ دعا به وضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس. قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث. قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبيغ بن عسل مشهور مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور ـ كما تقدم ـ: أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلًا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾ أي: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: لكائن لا محالة. ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك، وأبو صالح، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقال الضحاك، والمِنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك. قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك» يعني بالحبك: الجعودة. وعن أبي صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم. وقال قتادة: عن سالم بن أبي الجَعْد، عن مَعْدان بن أبي طلحة، عن عمرو البكالي، عن عبد الله بن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ يعني: السماء السابعة. وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، يعني ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غُمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣]. قال ابن عباس، والسدي: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ

أَفِكَ ﴿٩﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ ـ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهي مثل التي في عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ، رضي الله عنه، يقول في خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾: قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾﴾: وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار. وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضاً، وعكرمة، وإبراهيم النَّخعي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون. ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله، ﷻ: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال. وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً. ثم روي عن ابن حميد، حدثنا مهْران، عن سفيان، عن أبي عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس في قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبي شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي عمر البزار، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذي فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

ثم إنه تعالى بيَّن إحسانهم في العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، ﷻ، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة: وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة. والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصري: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من

باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً، والناس نيام».

وقال مَعْمَر في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾: كان الزهري والحسن يقولان: كانوا كثيراً من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخعي: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾: ما ينامون. وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾. وقوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر. وقوله: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدىء بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري، به ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب. وروى من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعاً. وأما ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال ابن عباس أيضاً: وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعي، ونافع ـ مولى ابن عمر ـ وعطاء ابن أبي رباح ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: المحارف. وقال قتادة، والزهري: ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: الذي لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه». وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر. وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له. وقال محمد بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم. وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم. واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها. وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾. وهذا يقتضي أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هي مكية شاملة لما بعدها. وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾: قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ فقال: ألا إني أرى رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربة فمكث فيها ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدَوْخَلَة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضي الله عنه، إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا. قال مسدد، عن ابن أبي عَدِيّ، عن عَوْف،

عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا». ورواه ابن جرير، عن بُنْدار، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلاً.

﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

هذه القصة قد تقدمت في سورة «هود» و«الحجر» أيضاً. وقوله: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل. وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩] أي: مشوي على الرَّضف، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تلطف في العبارة وعرض حسن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل، وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠ـ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢ـ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به. وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنة، قاله ابن عباس: ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي، وهي قولها: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنتُ في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال الله مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤ـ٧٦]. وقال هاهنا: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾. احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم

بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: ألقيناهم في اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند. ثم قال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما. ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله ـ يعني: ابن عياش ـ القتباني، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعني من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي رَبِّ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم، بقدر خاتم. فهي التي يقول الله في كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾. هذا الحديث رفعه منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ قالوا: هي الجنوب. وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكرَة النهار ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه. وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهداً لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، وحتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له، ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: ولا تشركوا به شيئاً، ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن

رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾! قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة. ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين». ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حسن صحيح. ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران ـ يعني ابن زائدة بن نَشِيط ـ عن أبيه، عن أبي خالد ـ هو الوالبي ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: «يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: حسن غريب. وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي شُرَحْبِيل، سمعت حَبَّة وسواء ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً أو يبني بناء ـ وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه». وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبا من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

❋ ❋ ❋

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً ﴾ .

أول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها ، وذلك لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله وقال (ذلك حشر علينا يسير) وقال (وما أنت عليهم بجبار) أى تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال (والذاريات ذروا . . . إنما توعدون لصادق) وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال فى أولها (إنما توعدون لصادق) وقال فى آخرها (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) وفى تفسير الآيات مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا الحكمة فى القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة فى سورة والصافات ، ونعيدها ههنا وفيها وجوه (الأول) أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبي ﷺ غالباً فى إقامة الدليل وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد ما يقوله ، وإنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال ، كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة ، يقول إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك ، وهو فى نفسه يعلم أن الحق بيدى فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول والله إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل ، وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى إلا السكوت أو التمسك بالأيمان وترك إقامة البرهان (الثانى) هو أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، ثم إن النبي ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً ، وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الإيمان ولناله

المكروه فى بعض الأزمان (الثالث) وهو أن الأيمان التى حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة ، فإن قيل فلم أخرجها مخرج الإيمان ؟ نقول لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين فى صورة اليمين ، وقد استوفينا الكلام فى سورة والصافات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى جميع السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهى : الوحدانية والرسالة والحشر ، وهى التى يتم بها الإيمان ، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا فى سورة واحدة من تلك السور وهى (والصافات) حيث قال فيها (إن إلهكم لواحد) وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) على سبيل الإنكار ، وكانوا يبالغون فى الشرك ، لكنهم فى تضاعيف أقوالهم ، وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد ، وكانوا يقولون (إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يبالغوا فى الحقيقة فى إنكار المطلوب الأول ، فاكتفى بالبرهان ، ولم يكثر من الأيمان ، وفى سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكونه رسولا فى إحداهما بأمر واحد ، وهو قوله تعالى (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم) وفى الثانية بأمرين وهو قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وما قلى) وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن ، كما فى قوله تعالى (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) وقد ذكرنا الحكم فيه أن معجزات النبى صلى الله عليه وسلم القرآن ، فأقسم به ليكون فى القسم الإشارة واقعة إلى البرهان ، وفى باقى السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به لكون إنكارهم فى ذلك جارجاً عن الحد ، وعدم استيفاء ذلك فى صورة القسم بالحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة فى سور خمس ، ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة فى سورة أصلا ، فلم يقل : والصالحين من عبادى ، ولا المقربين إلى غير ذلك ، مع أن المذكر أشرف ، وذلك لأن جموع السلامة بالواو والنون فى الأمر الغالب لمن يعقل ، وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا فى صورة ظهور الأمر فيه ، وحصول الاعتراف منهم به ، ولا للرسالة لحصول ذلك فى صور القسم بالحروف والقرآن .

بقى أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء ، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح ، وعذاب

الصالح . ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل ، فكان الأمر يقتضى أن يكون القسم بغيرهم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى السورة التى أقسم لإثبات الوحدانية ، أقسم فى أول الأمر بالساكنات حيث قال (والصافات) وفى السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات ، فقال (والذاريات) وقال (والمرسلات) وقال (والنازعات) ويؤيده قوله تعالى (والسابحات . . . فالسابقات) وقال (والعاديات) وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وذلك بالحركة أليق ، أو أن نقول فى جميع السور الأربع أقسم بالرياح على ما بين وهى التى تجمع وتفرق ، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التى يختارها بمشيئته تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الذاريات أقوال (الأول) هى الرياح تذرو التراب وغيره ، كما قال تعالى (تذروه الرياح) (الثانى) هى الكواكب من ذرا يذروا إذا أسرع (الثالث) هى الملائكة (الرابع) رب الذاريات ، والأول أصح .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الأمور الأربعة جاز أن تكون أموراً متباينة ، وجاز أن تكون أمراً له أربع اعتبارات (والأول) هى ما روى عن على عليه السلام ، أن الذاريات هى الرياح والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن ، والمقسمات هى الملائكة الذين يقسمون الأرزاق ، (والثانى) وهو الأقراب أن هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات هى الرياح التى تنشىء السحاب أولا ، والحاملات هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار المياه التى إذا سحت جرت السيول العظيمة ، وهى أوقار أثقل من جبال ، والجاريات هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها ، والمقسمات هى الرياح التى تفرق الأمطار على الأقطار ، ويحتمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة فى مقابلة أمور أربعة بها تتم الإعادة ، وذلك لأن الأجزاء التى تفرقت بعضها فى تخوم الأرضين ، وبعضها فى قعور البحور ، وبعضها فى جو الهواء ، وهى الأجزاء اللطيفة البخارية التى تنفصل عن الأبدان ، فقوله تعالى (والذاريات) يعنى الجامع الذاريات من الأرض ، على أن الذارية هى التى تذرو التراب عن وجه الأرض ، وقوله تعالى (فالحاملات وقراً) هى التى تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملا ، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملا ، بل تنقله من موضع ، وترميه فى موضع بخلاف السحاب ، فإنه يحمله وينقله فى الجو حملا لا يقع منه شىء ، وقوله (فالجاريات يسراً) إشارة إلى الجامع من الماء ، فإن من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر ، فإذا تبين أن الجمع من الأرض ، وجو الهواء ، ووسط البحار ممكن ، وإذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله ، كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) فقال (فالمقسمات أمراً) الملائكة التى تنفخ الروح فى الجسد بأمر الله ، وإنما ذكرهم بالمقسمات ، لأن الإنسان فى الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفاً بيناً ، فإن لكل أحد رأساً ورجلا ، والناس متقاربة فى الأعداد والأقدار ، لكن التفاوت الكثير فى

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)

النفوس ، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف ، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال (فالمقسمات أمراً) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ما هذه المنصوبات من حيث النحو ؟ فنقول أما (ذرواً) فلا شك فى كونه منصوباً على أنه مصدر ، وأما (وقراً) فهو مفعول به ، كما يقال : حمل فلان عدلا ثقيلا ، ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر ، كما يقال : ضربه سوطاً يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو . وأما (يسراً) فهو أيضاً منصوب على أنه صفة مصدر ، تقديره جرياً ذا يسر ، وأما (المقسمات أمراً) فهو إما مفعول به ، كما يقال : فلان قسم الرزق أو المال وإما حال أتى على صورة المصدر ، كما يقال : قتله صبراً ، أى مصبوراً ، كذلك ههنا (المقسمات أمراً) أى مأمورة ، فإن قيل : إن كان (وقراً) مفعوله به فلم لم يجمع ، وما قيل : والحاملات أوقاراً ؟ نقول لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح ، وهى تتوارد على وقر واحد ، فإن ريحاً تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب ، فتهب أخرى وتسوقها ، وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح ، وكذلك القول فى المقسمات أمراً ، إذا قلنا هو مفعول به ، لأن جماعة يكونون مأمورين تتقسم أمراً واحداً ، أو نقول هو فى تقدير التكرير كأنه قال : فالحاملات وقراً وقراً ، والمقسمات أمراً أمراً .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ما فائدة الفاء ؟ نقول إن قلنا إنها صفات الرياح فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود ، فان الذاريات تنشىء السحاب فتقسم الأمطار على الأقطار ، وإن قلنا إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب فى القسم لا للترتيب فى المقسم به ، كأنه يقول : أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات ، وقوله (فالحاملات) وقوله (فالجاريات) إشارة إلى بيان مافى الرياح من الفوائد ، أما فى البر فإنشاء السحب ، وأما فى البحر فإجراء السفن ، ثم المقسمات إشارة إلى مايترتب على حمل السحب وجرى السفن من الأرزاق ، والأرياح التى تكون بقسمة الله تعالى فتجرى سفن بعض الناس كما يشتهى ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه ، كما قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) .

ثم قال تعالى ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ (ما) يحتمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق وإن تكون موصولة أى الذى توعدون صادق ، والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة ، فكما أن من قال فلان لطف محض وحلم يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ ، والوجه فيه هو أنه إذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شىء له لطف فى اللطيف لطف وشىء آخر ، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفاً ، وفى الثانى لما كان

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ



الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه . فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج إلى شيء آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه ، بل هو كاف فى إطلاق الصادق لكونه سبباً قوياً وقوله تعالى (توعدون) يحتمل أن يكون من وعد ، ويحتمل أن يكون من أوعد ، والثانى هو الحق لأن اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد .

ـ وقوله تعالى ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ أى الجزاء كائن ، وعلى هذا فالإبعاد بالحشر فى الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب ، فكأنه تعالى بين بقوله (إن ما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) أن الحساب يستوفى والعقاب يوفى .

ثم قال ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ وفى تفسيره مباحث :

﴿ الأول ﴾ (والسماء ذات الحبك) قيل الطرائق ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال فى المحابك ، ويحتمل أن يكون المراد ما فى السماء من الأشكال بسبب النجوم ، فان فى سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذى يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق ، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ، ومثله قوله تعالى (والسماء ذات البروج) وقيل حبكها صفاقها يقال فى الثوب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى (والسماء ذات الرجع) لشدتها وقوتها هذا ما قيل فيه .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى المقسم عليه وهو قوله تعالى ﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ وفى تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة (الأول) إنكم لفى قول مختلف ، فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ، تارة تقولون إنه أمين وأخرى إنه كاذب ، وتارة تنسبونه إلى الجنون ، وتارة تقولون إنه كاهن وشاعر وساحر ، وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا ، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين (الثانى) (إنكم لفى قول مختلف) أى غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنا فى اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى ، والسماء إنكم غير جازمين فى اعتقادكم وإنما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهى أنهم لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إنك تعلم أنك غير صادق فى قولك ، وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال (والذاريات ذرواً) أى إنك صادق ولست معانداً ، ثم قال تعالى : بل أنتم والله جازمون بأنى صادق فعكس الأمر عليهم (الثالث) إنكم لفى قول مختلف ، أى متناقض ، أما فى الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ، فإذا كانت لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت : فماذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم ؟ وإنما يصح هذا عن يقولون بأن بعد الموت عذاباً فلو

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾

علمنا شيئاً يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم إنا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال ، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر ، وأما فى التوحيد فتقولون خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون هو إله الآلهة وترجعون إلى الشرك ، وأما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فتقولون إنه مجنون ثم تقولون له إنك تغلبنا بقوة جدلك ، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز ، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة .

ثم قال تعالى ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه مدح للمؤمنين ، أى يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوى (وثانيها) أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول (ثالثها) يؤفك عن القول بالحشر (رابعها) يؤفك عن القرآن ، وقرىء يؤفن عنه من أفن ، أى يحرم ، وقرىء يؤفك عنه من أفك ، أى كذب .

ثم قال تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ وهذا يدل على أن المراد من قوله (لفى قول مختلف) أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ، ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه .

ثم وصفهم فقال ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

﴿ أما اللفظية ﴾ فقوله (ساهون) يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، والمبتدأ هو قوله (هم) وتقديره هم كائنون فى غمرة ساهون ، كما يقال زيد جاهل جائر لا على قصد وصف الجاهل بالجائر ، بل الإخبار بالوصفين عن زيد ، ويحتمل أن يكون (ساهون) خبراً و (فى غمرة) ظرف له ، كما يقال زيد فى بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفى بيته لبيان ظرف القعود كذلك (فى غمرة) لبيان ظرف السهو الذى يصحح وصف المعرفة بالجملة ، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة .

﴿ وأما المعنوية ﴾ فهى أن وصف الخراص بالسهو والانهماك فى الباطل ، يحقق ذلك كون الخراص صفة ذم ، وذلك لأن مالا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص ، كما يقال فى خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك ، وأما الخرص فى محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال (قتل الخراصون ، الذين هم) جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم فى التخمين والحزر وقوله تعالى (ساهون) بعد قوله (فى غمرة) يفيد أنهم وقعوا فى جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه .

ثم قال تعالى ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ فإن قيل الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

أن يكون الزمان ظرفاً لظرف آخر ، وههنا جعل أيان ظرف اليوم فقال (أيان يوم الدين) ويقال متى يقدم زيد ، فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة ، فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين ، وأيان من المركبات ركب من أى التى يقع بها الاستفهام وآن التى هى الزمان أو من أى وأوان فكأنه قال أى أوان فلما ركب بنى وهذا منهم جواب لقوله (وإن الدين لواقع) فكأنهم قالوا أيان يقع استهزا وترك المسئول فى قوله (يسئلون) حيث لم يقل يسألون من ، يدل على أن غرضهم ليس الجواب وإنما يسألون استهزاء .

وقوله تعالى ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون جوابا عن قولهم (أيان) يقع وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال (يوم هم على النار يفتنون) وجهلهم بالثانى أقوى من جهلهم بالأول ، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى ، فإذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق ، لا يصح هـذا الجواب إلا إذا كان الكلام فى صورة جواب ، ولا يكون جواباً كما أن القائل إذا قال كم تعد عداتى وتخلفها إلى متى هذا الإخلاف فيغضب ويقول إلى أشأم يوم عليك ، الكلامان فى صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثانى يريد به الجواب ، فكذلك ههنا قال (يوم هم على النار يفتنون) مقابلة استهزائهم بالإيعاد لا على وجه الإتيان بالبيان (والثانى) أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه .

فى قوله تعالى ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ فإن قيل هذا يفضى إلى الإضمار ، نقول الإضمار لابد منه لأن قوله (ذوقوا فتنتكم) غير متصل بما قبله إلا بإضمار ، يقال ويفتنون قيل معناه يحرقون ، والأولى أن يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار كلمة على تناسب ذلك ، ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو فى النار أليق لأن الفتنة هى التجربة ، وأما ما يقال من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن ، وههنا قال (ذوقوا فتنتكم) والفتنة الامتحان ، فإن قيل فإذا جعلت (يوم هم على النار يفتنون) مقولا لهم (ذوقوا فتنتكم) .

فما قوله ﴿ هـذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ ؟ قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما فى قوله تعالى حكاية عنهم (ربنا عجل لنا قطنا) وقوله (فأتنا بما تعدنا) إلى غير ذلك يدله عليه ههنا قوله تعالى (يسألونك أيان يوم الدين) فإنه نوع استعجال ، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ بعد بيان حال المفترين المجرمين بين حال المحق المتق ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا أن المتق له مقامات أدناها أن يتق الشرك ، وأعلاها أن يتق ماسوى الله ، وأدنى درجات المتق الجنة ، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا و يدخل الجنة فيرزق نعيمها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجنة تارة وحدها كما قال تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) وأخرى جمعها كما فى هذا المقام قال (إن المتقين فى جنات) وتارة ثناها فقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فما الحكمة فيه ؟ نقول أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة ، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لايحصرها عدد ، وأما التثنية فسنذكرها فى سورة الرحمن غير أنا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة ، وكذلك عند الشراء حيث قال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة فى الوعد موجودة والخلاف ما لو وعد بجنات ثم كان يقول إنه فى جنة لأنه دون الموعود (الثالثة) قوله تعالى (وعيون) يقتضى أن يكون المتق فيها ولا لذة فى كون الإنسان فى ماء أوغير ذلك من المائعات ، نقول معناه فى خلال العيون ، وذلك بين الأنهار بدليل أن قوله تعالى (فى جنات) ليس معناه إلا بين جنات وفى خلالها لأن الجنة هى الأشجار ، وإنما يكون بينها كذلك القول فى العيون والتنكير ، مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أى عظيم فى الرجولية .

قوله تعالى : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ فيه مسائل ولطائف ، أما المسائل :

﴿ فالأولى ﴾ منها مامعنى آخذين ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء مالا نهاية له (ثانيها) آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى (ويأخذ الصدقات) أى يقبلها ، وهذا ذكره الزمخشرى (وفيه وجه ثالث) وهو أن قوله (فى جنات) يدل على السكنى فحسب وقوله (آخذين) يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا إذا دخلها متملكا لها ، وكذلك يقال لمن اشترى داراً أو بستاناً أخذه بثمن قليل أى تملكه ، وإن لم يكن هناك قبض حساً ولا قبول برضاً ، وحينئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك ، بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله (آتاهم) يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحا ، وإنما كان بإعطاء الله تعالى ، وعلى هذا الوجه ما راجعة إلى الجنات والعيون .

نَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وقوله ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ إشارة إلى ثمنها أي أخذوها وملكوها بالإحسان ، كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) بلام الملك وهي الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ آخذين حال وهو فى معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يؤتيهم ليتفق اللفظان ، ويوافق المعنى لأن قوله (آتاهم) ينبيء عن الانقراض وقوله (يؤتيهم) تنبيه على الدوام وإيتاء الله فى الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول ، كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس ؟ نقول أما على ماذكرنا من التفسير لا يرد لأن معناه يتملكون ماأعطاهم ، وقد يوجد الإعطاء امس ويتملك اليوم ، وأما على ماذكروه فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو فى الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيراً مما آتاه ، ولا ينافى ذلك كونه داخلا على تلك الهيئة ، يقول القائل جئتك خائفاً فإذا أنا آمن وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصراً على ما آتاهم من قبل ، وليس كذلك وإنما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم ، وقوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل) هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه فى سورة يس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) قبل دخولهم لأن قوله تعالى (فى جنات) فيه معنى الدخول يعنى قبل دخولهم الجنة أحسنوا (ثانيهما) قبل إيتاء الله ما آتاهم الحسنى وهى الجنة فأخذوها ، وفيه وجوه أخر ، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم (وأما اللطائف) فقد سبق بعضها ، ومنها أن قوله تعالى (إن المتقين) لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ، ولذلك دلالة أتم من قول القائل أنهم أحسنوا (اللطيفة الثانية) أما التقوى فلأنه لما قال لا إله فقد اتقى الشرك ، وأما الإحسان فلأنه لما قال إلا الله فقد أتى بالإحسان ، ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفى الإحسان قال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) وقيل فى تفسير (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله وهما حينئذ لا يتفاصلان بل هما متلازمان .

قوله تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين ، تقول حاتم كان سخياً كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قليلا منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلا ، تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو

أن يقال كانوا قليلا ، معناه نفى النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل ، وأنكر الزمخشرى كون مانافية ، وقال لايجوز أن تكون نافية لأن مابعد مالا يعمل فيما قبلها لا تقول زيداً ماضربت ويجوز أن يعمل مابعد لم فيما تقول زيداً لم أضرب ، وسبب ذلك هو أن الفعل المتعدى إنما يفعل فى النفى حملا له على الإثبات لأنك إذا قلت ضرب زيد عمراً ثبت تعلق فعله بعمرو فاذا قلت ماضربه لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه لكن المنفى محمول على الإثبات ، فإذا ثبت هذا فالنفى بالنسبة إلى الإثبات كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل فانه يعمل عمل الفعل ، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لايعمل ، فلا تقول زيد ضارب عمراً أمس ، وتقول زيد ضارب عمراً غداً واليوم والآن ، لأن الماضى لم يبق موجوداً ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل ، إذا عرفت هذا فنقول ما ضرب للنفى فى الماضى فاجتمع فيه النفى والمضى فضعف ، وأما لم أضرب وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضى لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه مايوجد فى قول القائل زيد ضارب عمراً غداً فاعمل هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوباً بقوله (يهجعون) وإنما ذلك خبر كانوا أى كانوا قليلين ، ثم قال (من الليل مايهجعون) أى مايهجعون أصلا بل يحيون الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض ، وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) وذلك لأنا ذكرنا أن قوله (إن المتقين) فيه معنى الذين آمنوا ، وقوله (محسنين) فيه معنى الذين عملوا الصالحات ، وقوله (كانوا قليلا) فيه معنى قوله تعالى (وقليل ماهم) .

﴿ البحث الثانى ﴾ على القول المشهور وهو أن ما زائدة يحتمل أن يكون قليلا صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعاً قليلا .

﴿ البحث الثالث ﴾ يمكن أن يقال قليلا منصوب على أنه خبر كان وما مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلا فيكون فاعل كانوا هو الهجوع ، ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لأن هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلا كما يقال كان زيد خلقه حسناً ، فلا يحتاج إلى القول بزيادة ، واعلم أن النحاة لايقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون فى الأول صفة وفى الثانى بدل ونحن حيث قلنا إنه من باب بدل الاشتمال أردنا به معنى لا اصطلاحاً ، وإلا فقليلا عند التقديم ليس فى النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل ، وفلان هجوعه قليل بدل ، وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلا من الليل ، هذا ما يتعلق باللفظ ، أما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلا فى الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون فى أواخر الآيات ، بل فيه فائدتان (الأولى) هى أن الهجوع راحة لهم ، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولا راحتهم ثم يصفه بالقلة . وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون وإذا قدم قوله قليلا يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع ، وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل ، لأن الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة ، فإن الهجوع لو لم يكن لكان نفي القلة أولى ولا كذلك قلة الهجوع لأنها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة فى الظاهر .

(الفائدة الثانية) فى قوله تعالى (من الليل) وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد ، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره فى الطاعة إلا متعبد مقبل ، فإن قيل الهجوع لا يكون إلا بالليل والنوم نهاراً لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول : رأيت حيواناً ناطقاً فصيحاً ، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا فى بعض المواضع فلا نقول رأيت فصيحاً ناطقاً حيواناً ، إذا عرفت هذا فنقول فى قوله تعالى (كانوا قليلا من الليل) ذكر أمراً هو كالعام يحتمل أن يكون بعده : كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك ، فإذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الأمر العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه .

ثم قال تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمن به .

وفيه وجه آخر ألطف منه ، وهو أنه تعالى لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال (يستغفرون) أى من ذلك القدر من النوم القليل ، وفيه لطيفة أخرى تنبيها فى جواب سؤال ، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيرا من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع ؟ نقول إشارة إلى إن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم لاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار فى وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى الباء فإنها استعملت للظرف ههنا ، وهى ليست للظرف ، نقول قال بعض النحاة : إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض ، يقال فى الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفى شهر رمضان ، فيستعمل اللام والباء وفى ، وكذلك فى المكان ، تقول : أقمت بالمدينة كذا وفيها ، ورأيته ببلدة كذا وفيها ، فإن قيل ما التحقيق فيه ؟ نقول الحروف لها معانى مختلفة ، كما أن الأسماء والأفعال كذلك ، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى ، والاسم والفعل

مستقلان ، لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد ، كما فى الأسماء والأفعال ، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان ، وكذلك سكن ومكث ، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد ، إذا عرفت هذا فنقول : بين الباء واللام وفى مشاركة ، أما الباء فإنها للالصاق ، والمتمكن فى مكان ملتصق به متصل ، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان ، فإذا قال : سار بالنهار معناه ذهب ذهاباً متصلا بالنهار ، وكذا قوله تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون) أى استغفاراً متصلا بالأسحار مقترناً بها ، لأن الكائن فيها مقترناً بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما فى المعنى تفاوت ؟ نقول نعم ، وذلك لأن من قال : قمت بالليل واستغفرت بالأسحار أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله قمت فى الليل ، لأنه يستدعى احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل : أقمت ببلد كذا ، لا يفيد أنه كان محاطاً بالبلد ، وقوله أقمت فيها يدل على إحاطتها به ، فإذن قول القائل : أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار ، أعم من قوله : قمت فيه ، لأن القائم فيه قائم به ، والقائم به ليس قائماً فيه من كل بد ، إذا علمت هذا فقوله تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون) إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب ، لأنهم وقت الانتباه فى الأسحار لم يخلو الوقت للذنب ، فإن قيل : زدنا بياناً فإن من الأزمان أزماناً لاتجعل ظروفاً بالباء ، فلا يقال خرجت بيوم الجمعة ، ويقال بلى ، نقول : إن كل فعل جار فى زمان فهو متصل به ، فالخروج يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ، ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة ، نقول الفارق بينهما الإطلاق والتقييد ، بدليل أنك إن قلت : خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة لم يحسن ، ولو قلت : خرجت بيوم سعد ، وخرج هو بيوم نحس حسن ، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما ، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء ، وحيث زال الخصوص بالتنكير ، وقلت خرجت بيوم كذا عاد الجواز ، والسر فيه أن مثل يوم الجمعة ، وهذه الساعة ، وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات ، وخصوصية الشىء فى الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الإجمال ، مثاله إذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ، ثم إنك لو قلت الرجل الطويل ، ماكان يصير مخصصاً ، لكنه يقرب من الخصوص ، ويخرج من القصار ، فإن قلت العالم لم يصر مخصصاً لكنه يخرج عن الجهال ، فإذا قلت الزاهد فكذلك ، فاذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم ، فإذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التى بأجمعها لاتجتمع إلا فى ذلك ، فإذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان ، والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشىء عن الزمان ، وأما فى فصحيح ، لأن ما حصل فى العام فهو فى الخاص ، لأن العام أمر داخل فى الخاص ، وأما فى فيدخل فى الذى فيه الشىء ، فصح أن يقال : فى يوم الجمعة ، وفى

وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

هذه الساعة ، وأما بحث اللام فنؤخره إلى موضعه ، وقد تقدم بعضه فى تفسير قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) وقوله (هم) غير خال عن فائدة ، قال الزمخشرى : فائدته انحصار المستغفرين ، أى لكمالهم فى الاستغفار ، كأن غيرهم ليس بمستغفر ، فهم المستغفرون لا غير ، يقال فلان هو العالم الكامل فى العلم كأنه تفرد به وهو جيد ، ولكن فيه فائدة أخرى ، وهى أن الله تعالى لما عطف (وبالأسحار هم يستغفرون) على قوله (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة (هم) لصلح أن يكون معناه : وبالأسحار قليلا ما يستغفرون ، تقول فلان قليلا ما يؤدى وإلى الناس يحسن . قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان ، فإذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله : قليل الإيذاء كثير الإحسان ، والاستغفار يحتمل وجوهاً (أحدها) طلب المغفرة بالذكر بقولهم (ربنا اغفر لنا) ، (الثانى) طلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات (الثالث) وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء أوان حصاده ، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة ، فإن قيل : فالله لم يؤخر مغفرتهم إلى السحر ؟ نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار ، وهو الوقت المشهود ، فيقول الله على ملأ منهم : إنى غفرت لعبدي ، والأول أظهر ، والثانى عند المفسرين أشهر .

قوله تعالى : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

وقد ذكرنا مراراً أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه بذكر الشفقة على خلقه ، ولا شك أن الليل المجوع المستغفر فى وجوه الأسحار وجد منه التعظيم العظيم ، فأشار إلى الشفقة بقوله (وفى أموالهم حق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أضاف المال إليهم ، وقال فى مواضع (أنفقوا مما رزقكم الله) وقال (ومما رزقناهم ينفقون) نقول سببه أن فى تلك المواضع كان الذكر للحث ، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع ، فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر واعطوا ، وأما ههنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشهور فى الحق أنه هو القدر الذى علم شرعا وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح ، لأن كون المسلم فى ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لأن كل مسلم كذلك ، بل الكافر إذا قلنا إنه مخاطب بفروع الإسلام فى ماله حق معلوم غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات عوقب على تركه ، وإن أدى من غير الإسلام لا يقع الموقع ، فكيف يفهم كونه مدحاً ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) أنا نفسر السائل بمن يطلب شرعاً ، والمحروم الذى لا مكنة له

من الطالب ومنعه الشارع من المطالبة ، ثم إن المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق ، وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى فى ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فإن ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلباً على سبيل الجزية والزكاة ، بل يسأل سؤالا اختيارياً فيكون حينئذ كأنه قال فى ماله زكاة وصدقة والصدقة فى المال لا تكون إلا بفرضه هو ذلك وتقديره وإفرازه للفقراء والمساكين ، الجواب الثانى هو أن قوله (وفى أموالهم حق للسائل) أى مالهم ظرف لحقوقهم فان كلمة فى للظرفية لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفاً للحق ، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفاً للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فإن قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان أبلغ ؟ قلنا لا وذلك لأن من يكون له أربعون ديناراً فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة لكن إذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر وهذا كما فى الصلاة والصوم لو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وفى السائل والمحروم وجوه : (أحدها) أن السائل هو الناطق وهو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحرومة قال النبى ﷺ « لكل كبد حرى أجر » (وثانيها) وهو الأظهر والأشهر ، أن السائل هو الذى يسأل ، والمحروم المتعفف الذى يحسبه بعض الناس غنياً فلا يعطيه شيئاً (والأول) كقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) (والثانى) كقوله (وأطعموا القانع والمعتر) فالقانع كالمحروم فإن قيل على الوجه الأول الترتيب فى غاية الحسن ، فإن دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم ، فما وجه الترتيب فى الوجه الثانى ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) أن السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم فى الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته ، والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته إلا بعد الاطلاع عليه . فكان الذكر على الترتيب الواقع (وثانيهما) هو أن ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطى السائل فإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤولا (الثالث) هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكمى ، فإن قول القائل إن رجوعهم إلينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى ، وكما أن الإنسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة ، كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها ، إذا عرفت هذا فقوله (وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أحسن من حيث اللفظ من قولنا وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للمحروم والسائل ، فإن قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ، ولم قدم المحروم على السائل فى قوله (القانع والمعتر) لأن (القانع)

وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

هو الذى لا يسأل (والمعتر) السائل ؟ نقول قد قيل إن (القانع) هو (السائل) (والمعتر) الذى لايسأل ، فلا فرق بين الموضعين ، وقيل بأن (القانع والمعتر) كلاهما لايسأل لكن (القانع) لا يتعرض ولا يخرج من بيته (والمعتر) يتعرض للأخذ بالسلام والتردد ولا يسأل ، وقيل بأن (القانع) لايسأل (والمعتر) يسأل ، فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية ، والزكاة لها طالب وسائل هو الساعى والإمام ، فقوله (للسائل) إشارة إلى الزكاة وقوله (والمحروم) أى الممنوع إشارة إلى الصدقة المتطوع بها واحداهما قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم .

قوله تعالى : ﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾ وهو يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بقوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، وفى الأرض آيات للموقنين) تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) إلى أن قال (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بأفعال المتقين ، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده ، وكان لهم آيات فى الأرض ، وفى أنفسهم على إصابتهم الحق فى ذلك ، فإن من يكون له فى الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى ، ومن له فى أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته ، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير ، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله ، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم ، وعلى هذا فقوله تعالى (فورب السماء والأرض) يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) ؟ نقول قد ذكرنا أن اليمين آخر ما يأتى به المبرهن وذلك لأنه أولا يأتى بالبرهان ، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لابد له من أن ينسبه الخصم إلى إصرار على الباطل لأنه إذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه إلى المكابرة فيتعين طريقه فى اليمين ، فإذا آيات الأرض لم تفدهم لأن اليمين بقوله (والذاريات ذرواً) دلت على سبق إقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها (وفى الأرض آيات للموقنين) وإن لم يحصل للبصر المعاند منها فائدة ، وأما فى سورة يس وغيرها من المواضع التى جعل فيها آيات الأرض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله فجاز أن يقال إن الأرض آيات لمن ينظر فيها (الجواب الثانى) وهو الأصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أى حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا .

وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قال (وفى الأرض آيات) وقال هناك (وآية لهم الأرض) نقول لما جعل الآية (للموقنين) ذكر بلفظ الجمع لأن الموقن لا يغفل عن الله تعالى فى حال ويرى فى كل شىء آيات دالة ، وأما الغافل فلا يتنبه إلا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة .

قوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ إشارة إلى دليل الأنفس ، وهو كقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وإنما اختار من دلائل الآفاق ما فى الأرض لظهورها لمن على ظهورها وإن فى أطرافها وأكنافها مالا يمكن عد أصنافها فدليل الأنفس فى قوله (وفى أنفسكم) عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين ، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما فى نفسه أتم وقوله تعالى (وفى أنفسكم) يحتمل أن يكون المراد وفيكم ، يقال الحجارة فى نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التى هى منبع الحياة والحس والحركات ، ويحتمل أن يكون المراد وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وقوله (أفلا تبصرون) بالاستفهام إشارة إلى ظهورها .

قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ فيه وجوه : (أحدها) فى السحاب المطر (ثانيها) (فى السماء رزقكم) مكتوب (ثالثها) تقدير الأرزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الأرض حبة قوت ، وفى الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لابد من سبقها حتى يوجد هو فى نفسه وأمور تقارنه فى الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها ، فالأرض هى المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال (وفى الأرض آيات) ثم فى نفس الإنسان أمور من الأجسام والأعراض فقال (وفى أنفسكم) ثم بقاؤه بالرزق فقال (وفى السماء رزقكم) ولولا السماء لما كان للناس البقاء .

قوله تعالى : ﴿ وما توعدون ﴾ فيه وجوه : (أحدها) الجنة الموعود بها لأنها فى السماء (ثانيها) هو من الإيعاد لأن البناء للمفعول من أوعد يوعد أى (وما توعدون) إما من الجنة والنار فى قوله تعالى (يوم هم على النار) وقوله (إن المتقين فى جنات) فيكون إيعاداً عاماً ، وأما من العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال (وفى الأرض آيات للموقنين) كافية ، وأما أنتم أيها الكافرون ففى أنفسكم آيات هى أظهر الآيات وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة ، وفى السماء الأرزاق ، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل ، لما تركتم الحق لأجل الرزق ، فإنه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل .

قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ وفى المقسم عليه وجوه

(أحدها) (ما توعدون) أى ماتوعدون لحق يؤيده قوله تعالى (إنما توعدون لصادق) وعلى هذا يعود كل ماقلناه فى وجوه (ما توعدون) إن قلنا إن ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هى (ثانيها) الضمير راجع إلى القرآن أى أن القرآن حق وفيما ذكرناه فى قوله تعالى (يؤفك عنه) دليل هذه وعلى هـذا فقوله (مثل ما أنكم تنطقون) معناه تكلم به الملك النازل من عنـد الله به مثل ما أنكم تتكلمون وسنذكره (ثالثها) أنه راجع إلى الدين كما فى قوله تعالى (وإن الدين لواقع) (رابعها) أنه راجع إلى اليوم المذكور فى قوله (أيان يوم الدين) يدل عليه وصف الله اليوم بالحق فى قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) (خامسها) أنه راجع إلى القول الذى يقال (هذا الذى كنتم به تستعجلون) وفى التفسير مباحث :

﴿ الأول ﴾ الفاء تستدعى تعقيب أمر لأمر فما الأمر المتقدم ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول (إن ما توعدون) لحق بالبرهان المبين ، ثم بالقسم واليمين (ثانيهما) القسم المتقدم كأنه تعالى يقول (والذاريات) ثم (ورب السماء والأرض) وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيـد معه حرف القسم كما يعاد الفعـل إذ يصح أن يقـال ومررت بعمرو ، فقوله (والذريات ذرواً ، فالحاملات وقراً) عطف من غير إعادة حرف القسم ، وقوله (فورب السماء) مع إعادة حرفه ، والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ، ويحتمل أن يقال الأمر المتقدم هو بيان الثواب فى قوله (يوم هم على النار يفتنون) وقوله (إن المتقين فى جنات) وفيـه فائدة ، وهو أن الفاء تكون تنبيها على أن لاحاجة إلى اليمين مع ماتقدم من الكشف المبين ، فكأنه يقول ورب السماء والأرض إنه لحق ، كما يقول القائل بعد مايظهر دعواه هذا والله إن الأمر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ، ويشير إلى ثبوته من غير يمين .

﴿ البحث الثانى ﴾ أقسم من قبـل بالأمور الأرضيـة وهى الرياح وبالسماء فى قوله (والسماء ذات الحبك) ولم يقسم بربها ، وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولا بالأدنى فإن لم يصدق به يرتقى إلى الأعلى ، ولهذا قال بعض الناس إذا قال قائل وحياتك ، والله لايكفر وإذا قال : والله وحياتك لاشك يكفر وهذا استشهاد ، وإن كان الأمر على خـلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب ، أو باللفظ الظاهر فى أمر القلب ، أو بالفعل الظاهر ، وماذكره ليس بظاهر فى تعظيم جانب غير الله ، والعجب من ذلك القائل أنه لايجعل التأخير فى الذكر مفيداً للترتيب فى الوضوء وغيره .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرىء مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفاً لقوله لحق ومثل وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به ، تقول رأيت رجلا مثل عمرو ، لأنه لايفيده تعريفاً لأنه فى غاية الإبهام وقرىء (مثل) بالنصب ، ويحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى ماهو ضعيف وإلا جاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أوضارب من يشتمه (ثانيهما) أن يكون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾

منصوباً على البيان تقديره لحق حقاً مثل ، ويحتمل أن يقال إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ، ووجهه أنا دللنا أن المراد من الضمير فى قوله (إنه) هو القرآن فكأنه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نطقاً (مثل ما أنكم تنطقون) وما مجرور لاشك فيه .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ إشارة إلى تسلية قلب النبى ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته فى بعض الأشياء ، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف ، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان المراد ماذكرت من التسلية والإنذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة ؟ نقول ليكون ذلك إشارة إلى الفرج فى حق الأنبياء ، والبلاء على الجهلة والأغبياء ، إذا جاءهم من حيث لايحتسب .

قال الله تعالى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف سماهم ضيفاً ولم يكونوا ؟ نقول لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفاً لم يكذبه الله تعالى فى حسابه إكراماً له ، يقال فى كلمات المحققين الصادق يكون ما يقول ، والصديق يقول ما يكون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع ، فكيف وصف الواحد بالجمع ؟ نقول الضيف يقع على القوم ، يقال قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدراً ، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عباداً مكرمين كما قال تعالى (بل عباد مكرمون) وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم ، فإن قيل : بماذا أكرمهم ؟ قلنا ببشاشة الوجه أولا ، وبالإجلاس فى أحسن المواضع وألطفها ثانياً ، وتعجيل القرى ثالثاً ، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة فى قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث ، وفى قول عشرة ، وفى آخر اثنا عشرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هم أرسلوا للعذاب بدليل قولهم (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام ، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام ؟ نقول فيه حكمة بالغة ، وبيانها من وجهين (أحدهما) أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن إكرام الملك للذى فى عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسول إلى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه (وثانيهما) هو أن

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾

الله تعالى لما قدر أن يهلك قوماً كثيراً وجماً غفيراً ، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك ، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى : ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما العامل في إذ ؟ فيه وجوه (أحدها) ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا ، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانيها) ما في الضيف من الدلالة على الفعل ، لأنا قلنا إن الضيف مصدر فيكون كأنه يقول : أضافهم إذ دخلوا (وثالثها) يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم ، فاسمع الآن ذلك ، لأن هل ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للاعلام ، وهذا أولى لأنه فعل مصرح به ، ويحتمل أن يقال اذكر إذ دخلوا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة ؟ نقول : نبين أولا وجوه النصب والرفع ، ثم نبين وجوه الاختلاف في الإعراب ، أما النصب فيحتمل وجوها :

(أحدها) أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ، ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاماً (ثانيها) هو أن يكون السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسناً سلموا من الإثم ، وحينئذ يكون مفعولا للقول لأن مفعول القول هو الكلام ، يقال قال فلان كلاماً ، ولا يكون هذا من باب ضربه سوطاً لأن المضروب هناك ليس هو السوط ، وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقوله تعالى (قيلا سلاماً سلاماً) .

(ثالثها) أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاماً ، لا يقال على هذا إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول (قوم منكرون) ولا كان يقرب إليهم الطعام ، ولما قال نكرهم وأوجس لأنا نقول جاز أن يقال أنهم قالوا : نبلغك سلاماً ولم يقولوا من الله تعالى إلى أن سألهم إبراهيم عليه السلام ممن تبلغون لي السلام ، وذلك لأن الحكيم لا يأتي بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة ، فلو ضموا إليه الأمر العظيم الذي هو السلام من الله تعالى لانزعج إبراهيم عليه السلام ، ثم إن إبراهيم عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وآخر السؤال إلى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب ، وأما الرفع فنقول يحتمل أن المراد منه السلام الذي هو التحية وهو المشهور أيضاً ، وحينئذ يكون مبتدأ

خبره محذوف تقديره سلام عليكم ، وكون المبتدأ نكرة يحتمل فى قول القائل سلام عليكم وويل له ، أوخبر مبتدأ محذوف تقديره قال جوابه سلام ، ويحتمل أن يكون المراد قولا يسلم به أو ينبىء عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أمرى سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بينى وبينكم لأنى لا أعرفكم ، أو يكون المبتدأ قولكم ، وتقديره قولكم سلام ينبىء عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم فإن الأمر أشكل على ، وهذا ما يحتمل أن يقال فى النصب والرفع ، وأما الفرق فنقول أما على التفسير المشهور وهو أن السلام فى الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى .

(أما من حيث اللفظ) فنقول سلام عليك إنما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة ، من حيث إنه كالمتروك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوباً على تقدير أسلم سلاماً وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان . فيكون كالخارج عن الكلام ، والكلام التام أسلم سلاماً ، كما أنك تقول ضربت زيداً على السطح يكون على السطح خارجاً عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية ، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعية كثير الوقوع ، قالوا نعدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية ونجعل لعليك حظاً فى الكلام ، فنقول سلام عليك ، فتصير عليك لفائدة لا بد منها ، وهى الخبرية ، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب ، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه ، والأصل مقدم على المأخوذ منه ، فقال (قالوا سلاماً قال سلام) قدم الأصل على المتفرع منه .

(وأما من حيث المعنى) فذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن ، فأتى بالجملة الإسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار ، فإن قولنا جلس زيد لا ينبىء عنه لأن الفعل لابد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث . ولهذا لو قلت : الله موجود الآن لأثبت العقل الدوام إذ لا ينبىء عن التجدد ، ولو قال قائل : وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا : سلاماً قال : سلام عليكم مستمر دائم ، وأما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق ، فإنهم قالوا قولا ذا سلام ، وقال لهم إبراهيم عليه السلام (سلام) أى قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الأمر على ، وإن قلنا المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليماً ، فنقول فيه جمع بين أمرين : تعظيم جانب الله ، ورعاية قلب عباد الله ، فانه لو قال : سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك ، فيكون الرسول قد أمنهم ، فان السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلا للأمر من غير إذن الله نيابة عن الله فقال أنتم سلمتم على وأنا متوقف أمرى متاركة لا تعلق بيننا إلى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقال فى مثل هذا المعنى للنبى صلى الله عليه وسلم (فاصفح عنهم وقل سلام) ولم يقل قل سلاماً ، وذلك لأن الأخيار المذكورين فى القرآن لو

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾

سلموا على الجاهلين لا يكون ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، فقال : قل سلام أي أمرى معكم متاركة تركناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر ، وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلاماً فنقول لما قالوا نبلغك سلاماً ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام أي إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرفى وإلا فقد بلغنى منه سلام وبه شرفى ولا أتشرف بسلام غيره ، وهذا ما يمكن أن يقال فيه . والله أعلم بمراده والأول والثانى عليهما الاعتماد فإنهما أقوى وقد قيل بهما .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى سورة هود (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) فدل على أن إنكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا (قال سلام قوم منكرون) .

قوله تعالى :﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم ، فما الوجه فيه ؟ نقول جاز أن يحصل أولا عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم ، والذى يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا فى أنفسهم عند كل أحد منكرين ، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال (أنتم منكرون) فى أنفسكم عند كل أحد منا ، ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة إلى الكل لكن الحالة فى سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره ههنا ، فإن ههنا لم يبين المبشر به ، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق ، ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قال قوم لوط ، وفى الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط ، فذكر فيها النكتة الزائدة ، ولم يذكر ههنا ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة ، فالإكرام أولا ممن جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم أحدهما على الآخر أنواع من الإكرام وهى اللقاء الحسن والخروج إليه والتهيؤ له ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذى دل عليه النصب فى قوله (سلاماً) إما لكونه مؤكداً بالمصدر أو لكونه مبلغاً ممن هو أعظم منه ، ثم الرد الحسن الذى دل عليه الرفع والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء إن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال أمرى مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر فإن ذلك وإن كان مخلا بالإكرام ، لكن الغدر ليس من شيم الكرام ومودة أعداء الله لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذى دل عليه قوله تعالى (فما لبث أن جاء) وقوله ههنا (فراغ) فإن الروغان يدل على السرعة والروغ الذى بمعنى النظر الخفى أو الرواح المخفى أيضاً كذلك ، ثم الإخفاء فإن المضيف إذا أحضر شيئاً ينبغى أن يخفيه عن الضيف كى لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا ، وغيبة المضيف لحظة

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾

من الضيف مستحسن ليستريح ويأتى بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه ثم اختيار الأجود بقوله (سمين) ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله (فقربه إليهم) لأن من قدم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقراً فى مقره لا يختلف عليه المكان فإن نقلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى ثم العرض لا الأمر حيث قال (ألا تأكلون) ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسروراً بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد فى بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاماً كثيراً ويكون نظره ونظر أهل بيته فى الطعام متى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المؤاكله ، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك يدل عليه قوله (لا تخف) ثم تحسين العبارة فى العذر وذلك لأن من يكون محتمياً وأحضر لديه الطعام فهناك أمران (أحدهما) أن الطعام لا يصلح له لكونه مضراً به (الثانى) كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغى أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لى بل الحسن أن يأتى بالعبارة الأخرى ويقول : لى مانع من أكل الطعام وفى بيتى لا آكل أيضاً شيئاً ، يدل عليه قوله (وبشروه بغلام) حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب ، ثم أدب آخر فى البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضاً يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الأوصاف فان الإبن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والإبن بالضد ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت ، وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الإخبار عن إهلاكهم قوم لوط ، ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف ، ويأتى ببدلهم خيراً منهم .

قوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ .

أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت فى خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة . وقوله تعالى (فى صرة) أى صيحة ، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب ، ويحتمل أن يقال تلك الصيحة

قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

كانت بقرلها ياويلتا ، تدل عليه الآية التي في سورة هود ، وصك الوجه أيضاً من عادتهن ، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما (أحدهما) كبر السن (والثاني) العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأيست فاستبعدت ، فكأنها قالت ياليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة ، ظناً منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي : الله يعطيك مالا ويرزقك ولداً ، فقالوا هذا منا ليس بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى ﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ .

وقد ذكرنا تفسيرهما مراراً ، فإن قيل لم قال ههنا (الحكيم العليم) وقال في هود (حميد مجيد) نقول لما بينا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكروا مايدفع الاستبعاد بقولهم (أتعجبين من أمر الله) ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم (حميد) فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم (مجيد) إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وههنا لما لم يقولوا (أتعجبين) إشارة إلى مايدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه ، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله ، كما ينبغي لعلمه قاصداً لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقاً للمقصود اتفاقاً ، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فائدة لا يقال له حكيم ، وأما إذا فعل فعلا قاصداً اقتلها بحيث يسلم عن نهشها ، يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده ، وإن لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد .

قوله تعالى :﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما علم حالهم بدليل قوله (منكرون) لم لم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لا غير ؟ نقول إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج ماهذه العجلة ، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ، ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم ، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق ، لاسيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم ، وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل ، وهو أبو الأنبياء إسحق عليه السلام على الصحيح ، فإن قيل فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ، ولو كان كما ذكرتم لقال ما هذا

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾

الاستعجال ، وما خطبكم المعجل لكم ؟ نقول لوكان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وإيناس ماكان يقول شيئاً ، فلما آنسوه قال ماخطبكم ، أى بعد هذا الأنس العظيم ، ماهذا الإيحاش الأليم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هل فى الخطب فائدة لاتوجد فى غيره من الألفاظ ؟ نقول نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التى يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضى ، فقال (ما خطبكم) أى لعظمتكم لاترسلون إلا فى عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول ما شغلكم الخطير . وأمركم العظيم لزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من أين عرف كونهم مرسلين ، فنقول (قالوا) له بدليل قوله تعالى (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما لم يذكر ههنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة فى سورة هود ، أو نقول لما قالوا لامرأته (كذلك قال ربك) علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى ، يدل على هذا أن قولهم ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ كان جواب سؤاله منهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذه الحكاية بعينها هى المحكية فى هود ، وهناك قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما زال عنه الروع وبشروه ، وهنا قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما سألهم عن الخطب ، وأيضاً قالوا هناك (إنا أرسلنا إلى قوله لوط) وقالوا ههنا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) والحكاية من قولهم ، فإن لم يقولوا ذلك ورد السؤال أيضاً ، فنقول إذا قال قائل حاكياً عن زيد : قال زيد عمرو خرج ، ثم يقول مرة أخرى : قال زيد إن بكراً خرج ، فإما أن يكون صدر من زيد قولان ، وإما أن لايكون حاكياً ماقاله زيد ، والجواب عن (الأول) هو أنه لما خاف جاز أنهم ماقالوا له (لا تخف إنا أسلنا إلى قوم لوط) فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم ، كان لهم أن يقولوا (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) لنهلكهم ، كما يقول القائل : خرجت من البيت ، فيقال لماذا خرجت ؟ فيقول خرجت لأتجر ، لكن ههنا فائدة معنوية ، وهى أنهم إنما قالوا فى جواب (ماخطبكم) نهلكهم ؟ بأمر الله ، لتعلم براءتهم عن إيلام البرىء ، وإهمال الردى. فأعادوا لفظ الإرسال ، وأما عن (الثانى) نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ ، كما تقول : قال زيد بعمرو مررت ، فيحكى لفظه المحكى ، وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول : زيد قال عمرو خرج ، ولك أن تبدل مرة أخرى فى غير تلك الحكاية بلفظة أخرى ، فتقول لما قال زيد بكر خرج ، قلت كيت وكيت ، كذلك ههنا القرآن لفظ معجز ، وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم ، وسواء كان منزلا عليهم لم يكن لفظه معجزاً ، فيلزم أن لاتكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ ، فكأنهم قالو له (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وقالوا

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾

(إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وله أن يقول ، إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك ، لأنه لا يحكى لفظهم حتى يكون ذلك واحداً ، بل يحكى كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة ، ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم فى السلام على أحد الوجوه فى التفسير ، قال فى الموضعين : سلاماً وسلام ثم بين ما لأجله أرسلوا بقوله ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ وقد فسرنا ذلك فى العنكبوت ، وقلنا إن ذلك دليل على وجوب الرمى بالحجارة على اللائط وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أى حاجة إلى قوم من الملائكة ، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه ؟ نقول الملك القادر قد يأمر الحقير بإهلاك الرجل الخطير ، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير ، إظهاراً لنفاذ أمره ، فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التى بها الحياة ، كان أظهر فى القدرة وحيث أمر آلاف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر فى نفاذ الأمر وفيه فائدة أخرى ، وهى أن من يكون تحت طاعة ملك عظيم ، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره ، يكون ذلك تعظيما منه له وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم ، لكن الله تعالى أعان لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف ، وبين العددين من التفاوت مالا يخفى وقد ذكرنا نبذاً منه فى تفسير قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تأكيد الحجارة بكونها (من طين)؟ نقول لأن بعض الناس يسمى البرد حجارة فقوله (من طين) يدفع ذلك التوهم ، واعلم أن بعض من يدعى النظر يقول لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة ، قالوا وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندى ، فيصير طيناً رطبا ، والرطب إذا نزل وتفرق استدار ، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلىء الكبار ، ثم فى النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التى فى الجو ، جعلته حجارة كالآجر المطبوخ ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه ، وقد ينزل كثيراً فى المواضع التى لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ، ولهذا قال (من طين) لأن مالا يكون (من طين) كالحجر الذى فى الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر وهذا تعسف ، ومن يكون كامل العقل يسند الفكر إلى ما قاله ذلك القائل ، فيقول ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولابد من الانتهاء إلى محدث ليس بحادث ، فذلك المحدث لابد وأن يكون فاعلا مختاراً ، والمختار له أن يفعل ماذكر وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لاطريق له إلى الجزم

مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

بطريق إحداثه وما لا يصل العقل إليه يجب أخذه بالنقل ، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وإنما المعلوم أن الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ، لأنها في العادة لابد لها من مكث في النار .

قوله تعالى : ﴿ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ فيه وجوه : (أحدها) مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به (ثانيها) أنها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الاحجار فإنها مخلوقة للانتفاع في الأبنية وغيرها (ثالثها) مرسلة للمجرمين لأن الإرسال يقال في السوائم يقال أرسلها لترعى فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى (والخيل المسومة) إشارة إلى الاستغناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى ، كما قال (والقناطير المقنطرة) وقوله تعالى (للمسرفين) إشارة إلى خلاف ما يقول الطبيعيون إن الحجارة إذا أصابت واحداً من الناس فذلك نوع من الاتفاق فإنها تنزل بطبعها يتفق شخص لها فتصيبه فقوله (مسومة) أي في أول ما خلق وأرسل إذا علم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين ، فإن قيل إذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم) مع أن المسرف غير المجرم في اللغة ؟ نقول المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتي بالكبيرة ، ومن أسرف ولو في الصغائر يصير مجرماً لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيراً ، ومن أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم . لكن فيه لطيفة معنوية ، وهي أن الله تعالى سومها للمسرف المصر الذي لا يترك الجرم والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى ، يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم ، وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم) نعلمهم (مجرمين) لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن ويصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا في الإجرام ، فان قيل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد ؟ نقول لتعريف العهد أي مسومة لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة ، فان قيل ما إسرافهم ؟ نقول ما دل عليه قوله تعالى (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ فيه فائدتان :

(أحداهما) بيان القدرة والاختيار فان من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار .

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

﴿ ثانيها ﴾ بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية مادام فيها المؤمن لم تهلك ، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة .

قوله تعالى : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف مالو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ، وقيل فى مثاله إن العالم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشة ونما ، وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب . فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة ، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، فإذا سمى المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما ، فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين ، وهذا كما لو قال قائل لغيره : من فى البيت من الناس ؟ فيقول له ما فى البيت من الحيوانات أحد غير زيد ، فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

وفى الآية خلاف ، قيل هو ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل حجارة مرمية فى ديارهم وهى بين الشام والحجاز ، وقوله (الذين يخافون العذاب الأليم) أى المنتفع بها هو الخائف ، كما قال تعالى (لقوم يعقلون) فى سورة العنكبوت ، وبينهما فى اللفظ فرق قال ههنا (آية) وقال هناك (آية بينة) وقال هناك (لقوم يعقلون) وقال ههنا (للذين يخافون) فهل فى المعنى فرق ؟ نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى (آية بينة) حيث وصفها بالظهور ، وكذلك منها وفيها فإن من للتبعيض ، فكأنه تعالى قال : من نفسها لكم آية باقية ، وكذلك قال (لقوم يعقلون) فإن العاقل أعم من الخائف ، فكانت الآية هناك أظهر ، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم ، وههنا تسلية القلب ألا ترى إلى قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقال هناك (إنا منجوك وأهلك) من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ
سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ .

قوله (وفى موسى) يحتمل أن يكون معطوفاً على معلوم ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على مذكور ، أما الأول ففيه وجوه (الأول) أن يكون المراد ذلك فى إبراهيم وفى موسى ، لأن من ذكر إبراهيم يعلم ذلك (الثانى) لقومك فى لوط وقومه عبرة ، وفى موسى وفرعون (الثالث) أن يكون هناك معنى قوله تعالى : تفكروا فى إبراهيم ولوط وقومهما ، وفى موسى وفرعون ، والكل قريب بعضه من بعض ، وأما الثانى ففيه أيضاً وجوه (أحدها) أنه عطف على قوله (وفى الأرض آيات للموقنين) ، (وفى موسى) وهو بعيد لبعده فى الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما (ثانيها) أنه عطف على قوله (وتركنا فيها آية للذين يخافون) ، (وفى موسى) أى وجعلنا فى موسى على طريقة قولهم : علفتها تبناً وماء بارداً ، وتقلدت سيفاً ورمحاً ، وهو أقرب ، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين إن الضمير فى قوله تعالى (وتركنا فيها) عائد إلى القرية (ثالثها) أن نقول فيها راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير : وتركنا فى حكايتهم آية أو فى قصتهم ، فيكون : وفى قصة موسى آية ، وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطف على المعلوم (رابعها) أن يكون عطفاً على هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ، وتقديره (وفى موسى) حديث إذ أرسلناه ، وهو مناسب إذ جمع الله كثيراً من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، كما قال تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى) وقال تعالى (صحف إبراهيم وموسى) والسلطان القوة بالحجة والبرهان ، والمبين الفارق ، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ماكان معه من البراهين القاطعة التى حاج بها فرعون ، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين .

قوله تعالى ﴿ فتولى بركنه ﴾ فيه وجوه (الأول) الباء للمصاحبة ، والركن إشارة إلى القوم كأنه تعالى يقول : أعرض مع قومه ، يقال نزل فلان بعسكره على كذا ، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى) قال (أدبر) وهو بمعنى تولى وقوله (فحشر فنادى) فى معنى قوله تعالى (بركنه) ، الثانى (فتولى) أى اتخذ ولياً ، والباء للتعدية حينئذ يعنى تقوى بجنده (والثالث) تولى أمر موسى بقوته ، كأنه قال : أقتل موسى لئلا يبدل دينكم ، ولا يظهر فى الأرض الفساد ، فتولى أمره بنفسه ، وحينئذ يكون المفعول غير مذكور ، وركنه هو نفسه القوية ، ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان ، فإنه كان وزيره ، وعلى هذا الوجه الثانى أظهر .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أى هذا ساحر أو مجنون ، وقوله (ساحر) أى يأتى الجن بسحره

فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾

أو يقرب منهم ، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم ، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن ، غير أن الساحر يأتيهم باختياره ، والمجنون يأتونه من غير اختياره ، فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب . فقال هو يسحر الجن أو يسحر ، فان كان ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه .

ثم قال تعالى ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾ وهو إشارة إلى بعض ماأتى به ، كأنه يقول : واتخذ الأولياء فلم ينفعوه ، وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعاً فى اليم وهو البحر ، والحكاية مشهورة ، وقوله تعالى (وهومليم) نقول فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين ، أما شرفه فلأنه تعالى قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله : إنى أريد هلاك أعدائك يا إله العالمين ، فلم يكن له سبب إلاهذا ، أما فرعون فقال (أنا ربكم الأعلى) فكان سببه تلك ، وهذا كما قال القائل : فلان عيبه أنه سارق ، أو قاتل ، أويعاشر الناس فيؤذيهم ، وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لايعاشر ، فتكون نسبة العيبين بعضهما إلى بعض سبباً لمدح أحدهما وذم الآخر . وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهومليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ، ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه إيمانه حين قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) .

قوله تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وفيه ما ذكرنا من الوجوه التى ذكرناها فى عطف موسى عليه السلام ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر أن المقصود ههنا تسلية قلب النبى ﷺ وتذكيره بحال الأنبياء ، ولم يذكر فى عاد وثمود أنبياءهم ، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، نقول فى ذكر الآيات ست حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى عليه السلام ، وفى هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ، لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما فى حق إبراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر ، وأما فى قوم لوط فلأن الناجين ، وإن كانوا أهل بيت واحد ، ولكن المهلكين كانوا أيضاً أهل بقعة واحدة .

وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعاف ماكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام .

فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى فى آخر هذه الآيات (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من

مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) إلى أن قال (فتول عنهم فما أنت بملوم : وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

وفي هود قال بعد الحكايات (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) إلى أن قال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) فذكر بعدها ما يؤكد التهديد ، وذكر بعد الحكايات ههنا ما يفيد التسلي ، وقوله (العقيم) أي ليست من اللواقح لأنها كانت تكسر وتقلع فكيف كانت تلقح والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول وكذلك إذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور ، وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعاً ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لأنه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام محتاج إليه فأول ما يحصل في الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول ، تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ، ويدل على ذلك أيضاً أن التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل فاعل بألف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة ، وقيل مفعول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر ، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما بأحدهما فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير فاذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به .

قوله تعالى : ﴿ ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ في إعرابه وفيه وجهان (أحدهما) نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدي أنه وصف فإن قيل كيف يكون وصفاً والمعرفة لا توصف بالجمل وما تذر جملة ولا يوصف بها إلا النكرات ؟ نقول الجواب فيه من وجهين (أحدهما) أنه يكون بإعادة الريح تقديراً كأنه يقول : وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحاً ماتذر (ثانيهما) هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة كأنه يقول : وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة ، ولهذا أكثر ماذكرها في القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملها قوله تعالى (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) وقوله (ريح صرصر عاتية سخرها) إلى غير ذلك (والوجه الثاني) وهو الأصح أنه نصب على الحال تقول جاءني مايفهم شيئاً فعلته وفهمته أي حاله كذا ، فإن قيل لم تكن حال الإرسال ماتذر والحال ينبغي أن يكون موجوداً مع ذي الحال وقت الفعل

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾

فلا يجوز أن يقال جاءنى زيد أمس راكباً غداً ، والريح بعد ما أرست بزمان صارت ماتذر شيئاً نقول المراد به البيان بالصلاحية أى أرسلناها وهى على قوة وصلاحية أن لا تذر ، نقول لمن جاء وأقام عندك أياماً ثم سألك شيئاً ، جئتنى سائلا أى قبل السؤال بالصلاحية والإمكان ، هذا إن قلنا إنه نصب وهو المشهور ، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هى ماتذر .

﴿ البحث الثانى ﴾ ماتذر للنفى حال التكلم يقال مايخرج زيد أى الآن ، وإذا أردت المستقبل تقول لايخرج أولن يخرج ، وأما الماضى تقول ما خرج ولم يخرج ، والريح حالة الكلام مع النبى صلى الله عليه وسلم كانت ماتركت شيئاً إلا جعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحالة ماتذر ؟ نقول الحكاية مقدرة على أنها محكية حال الوقوع ، ولهذا قال تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) مع أن اسم الفاعل الماضى لايعمل وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال .

﴿ البحث الثالث ﴾ هل فى قوله تعالى (ماتذر من شىء أتت عليه) مبالغة ودخول تخصيص كما فى قوله تعالى(تدمر كل شىء بأمر ربها)؟ نقول هو كما وقع لأن قوله(أتت عليه)وصف لقوله (شىء) كأنه قال كل شىء أتت عليه أو كل شىء تأتى عليه جعلته كالرميم ولا يدخل فيه السموات لأنها ماأتت عليها وإنما يدخل فيه الأجسام التى تهب عليها الرياح ، فإن قيل فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم ؟ نقول المراد أتت عليه قصداً وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة إياهم فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم مع أن الصر الريح الباردة والمكرر لاينفك عن المعنى الذى فى اللفظ من غير تكرير ، تقول حث وحثحث وفيه مافى حث نقول فيه قولان (أحدهما) أنها كانت باردة فكانت فى أيام العجوز وهى ثمانية أيام من آخر شباط وأول أذار ، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرهما وتسودهما (والثانى) أنها كانت حارة والصر هو الشديد لا البارد وبالشدة فسر قوله تعالى (فى صرة) أى فى شدة من الحر .

﴿ البحث الرابع ﴾ فى قوله تعالى (ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) لأن فى قوله تعالى (ماتذر) نفى الترك مع إثبات الإتيان فكأنه تعالى قال تأتى على أشياء وما تتركها غير محرقة وقول القائل : ما أتى على شىء إلا جعله كذا يكون نفى الإتيان عما لم يجعله كذلك .

قوله تعالى ﴿ وفى ثمود ﴾ والبحث فيه وفى عاد هو ما تقدم فى قوله تعالى (وفى موسى) .

وقوله تعالى ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ قال بعض المفسرين : المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة وكانت فى تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم وتسود ، وهو ضعيف لأن قوله تعالى (فعتوا عن أمر ربهم) بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

(تمتعوا) فإذن الظاهر أن المراد هو ماقدر الله للناس من الآجال ، فما من أحد إلا وهو يمهل مدة الأجل يقول له تمتع إلى آخر أجلك فان أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين . وإلا فمالك في الآخرة من نصيب .

وقوله ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ فيه بحث وهو أن عتا يستعمل بعلى قال تعالى (أيهم أشد على الرحمن عتياً) وههنا استعمل مع كلمة عن فنقول فيه معنى الاستعناء (؟) بحيث قال تعالى (عن أمر ربهم) كان كقوله (لا يستكبرون عن عبادته) وحيث قال على كان كقول القائل . فلان يتكبر علينا . والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا (أحدهما) أنها الواقعة (والثاني) الصوت الشديد وقوله (وهم ينظرون) إشارة إلى أحد معنيين إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب يضربك فلان وأنت تنظر إشارة إلى أنه لا يدفع ، وأما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه ، ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج ، كما يقول المبارز الشجاع أخبرتك بقصدي إياك فانتظرني .

قوله تعالى : ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة ، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلا عن أن يهرب ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية (إحداها) قوله تعالى (فما استطاعوا) فإن الاستطاعة دون القدرة ، لأن في الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبيء عن عدم القدرة والاستقلال ، فمن استطاع شيئاً كان دون من يقدر عليه ، ولهذا يقول المتكلمون الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل إشار إلى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه وإليه الإشارة بقوله تعالى (هل يستطيع ربك) على قراءة من قرأ بالتاء وقوله (فما استطاعوا) أبلغ من قول القائل ماقدروا على قيام (ثانيها) قوله تعالى (من قيام) بزيادة من ، وقد عرفت ما فيه من التأكيد (ثالثها) قوله (قيام) بدل قوله هرب لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب (الوجه الثاني) هو أن المراد من قيام القيام بالأمر ، أي ما استطاعوا من قيام به .

قوله تعالى : ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي ما استطاعوا الهزيمة والهرب ، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ما كانوا منتصرين ، وقد عرفت أن قول القائل ماهو بمنتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)

(ما انتصر) أى لشىء من شأنه ذلك ، كما تقول فلان لا ينصر أو فلان ليس ينصر .

قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ قرىء (قوم) بالجر والنصب فما وجههما ؟ نقول أما الجر فظاهر عطفاً على ماتقدم فى قوله تعالى وفى عاد وفى موسى ، تقول لك فى فلان عبرة وفى فلان وفلان ، وأما النصب فعلى تقدير : وأهلكنا قوم نوح من قبل ، لأن ما تقدم دل على الهلاك فهو عطف على المحل ، وعلى هذا فقوله (من قبل) معناه ظاهر كأنه يقول (وأهلكنا قوم نوح من قبل) وأما على الوجه الأول فتقديره : وفى قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وهو بيان للوحدانية ، وما تقدم كان بياناً للحشر .

وأما قوله ههنا (والسماء بنيناها بأيد) وأنتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ماخلقوا منها شيئاً فلا يصح الإشراك ، ويمكن أن يقال هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل ، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانياً ، كما قال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النصب على شريطة التفسير يختار فى مواضع ، وإذا كان العطف على جملة فعليه فما تلك الجملة ؟ نقول فى بعض الوجوه التى ذكرناها فى قوله تعالى (وفى عاد وثمود) تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود ، عطفاً على قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) وعلى هذا يكون ماتقدم جملة فعلية لاخفاء فيه ، وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفاً على ما بالنصب أولى ، ولأن قوله تعالى (فنبذناهم) وقوله (أرسلنا) وقوله تعالى (فأخذتهم الصاعقة) و (فما استطاعوا) كلها فعليات فصار النصب مختاراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر ذكر البناء فى السموات ، قال تعالى (والسماء وما بناها) وقال تعالى (أم السماء بناها) وقال تعالى (جعل الأرض قراراً والسماء بناء) فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن البناء باق إلى قيام القيامة لم يسقط منه شىء ولم يعدم منه جزء ، وأما الأرض فهى فى التبدل والتغير فهى كالفرش الذى يبسط ويطوى وينقل ، والسماء كالبناء المبنى الثابت ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (سبعاً شداداً) وأما الأراضى فكم منها ماصار بحراً وعاد أرضاً من وقت

حدوثها (ثانيها) أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرءوس ، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق ،كما قال تعالى (رفع سمكها) (ثالثها) قال بعض الحكماء : السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله (بنينا) عامل فى السماء ، فما الحكمة فى تقديم المفعول على الفعل ولو قال : وبنينا السماء بأيد ،كان أوجز ؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر فى المعرفة ، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع ، قدم الدليل فقال والسماء المزينة التى لاتشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لاتعرفوننا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المقصود إثبات التوحيد ، فكيف قال (بنيناها) ولم يقل بنيتها أو بناها الله ؟ نقول قوله (بنينا) أدل على عدم الشريك فى التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك ، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى (بنيناها) لا يورث إيهاماً بأن الآلهة التى كانوا يعبدونها هى التى يرجع إليها الضمير فى (بنيناها) لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب اجعلوا الأصنام على صورها وطباعها ، فأما الأصنام المنحوتة فلا يشكون أنها ما بنت من السماء شيئاً ، وأما الكواكب فهى فى السماء محتاجة إليها فلا تكون هى بانيتها ، وإنما يمكن أن يقال إنما بنيت لها وجعلت أماكنها ، فلما لم يتوهم ماقالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لأن كل ماهو غير السماء ودون السماء فى المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها . فإذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته ، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله (بنيناها) أدل على نفى الشريك من بنيتها وبناها الله .

فإن قيل : لم قلت إن الجمع يدل على التعظيم ؟ قلنا الجواب من الوجهين (الأول) أن الكلام على قدر فهم السامع ، والسامع هو الإنسان ، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب ، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه ، فيقول الملك فعلنا أى فعله عبادنا بأمرنا ويكون فى ذلك تعظيم ، فكذلك فى حق الغائب (الوجه الآخر) هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضياً يقول القائل فعلنا كذا وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض ، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه ، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شىء لايكون لأحد رده وكان كل واحد منقاداً له ، يقول بدل فعلت فعلنا ، ولهذا الملك العظيم أجمعنا بحيث لاينكره أحد ولا يرده نفس ، وقوله تعالى (بأيد) أى قوة والأيد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى (ذا الأيد إنه أواب) يحتمل أن يقال إن المراد جمع اليد ، ودليله أنه قال تعالى (لما خلقت بيدى) وقال تعالى (مما عملت أيدينا أنعاماً) وهو راجع فى الحقيقة إلى المعنى الأول وعلى هذا فحيث قال (خلقت) قال (بيدى) وحيث قال (بنينا) قال (بأيد) لمقابلة الجمع بالجمع ، فإن قيل فلم لم يقل بنيناها بأيدينا وقال (مما عملت أيدينا) ؟ نقول لفائدة

وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

جليلة ، وهي أن السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله والأنعام ليست كذلك ، فقال هناك (مما عملت أيدينا) تصريحاً بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك (خلقت بيدى) وفى السماء (بأيد) من غير إضافة للاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهى أن هناك لما أثبت الاضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول ، فلم يقل خلقته بيدى ولا قال عملته أيدينا وقال ههنا (بنيناها) لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماء فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة فقال (بنيناها) بعود الضمير تصريحا بأنها مخلوقة .

قوله تعالى : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أنه من اسعة أى أو سعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة فى فلاة ، والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدراتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض (ثانيها) قوله (وإنا لموسعون) أى لقادرون ومنه قوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) أى قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة ، ويحتمل أن يقال بأن ذلك حينئذ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول : بنينا السماء ، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها ، كما فى قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) (ثالثها) (إنا لموسعون) الرزق على الخلق .

قوله تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ استدلالا بالأرض وقد علم ما فى قوله (والأرض فرشناها) وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون فى العادة قبل الفرش ، وقوله تعالى (فنعم الماهدون) أى نحن أو فنعم الماهدون ماهدوها .

قوله تعالى : ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ استدلالا بما بينهما والزوجان إما الضدان فان الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما كذلك ، وإما المتشاكلان فان كل شىء له شبيه ونظير وضد وند ، قال المنطقيون المراد بالشىء الجنس وأقل مايكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادى والمجرد ، ومن المادى النامى والجامد ومن النامى المدرك والنبات من المدرك الناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه .

قوله تعالى : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لعلكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج وإلا لكان ممكنا فيكون مخلوقا ولا يكون خالقاً ، أو (لعلكم تذكرون) أن خالق الأزواج لا يعجز عن حشر الأجسام وجمع الأرواح .

فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾ أمر بالتوحيد، وفيه لطائف (الأولى) قوله تعالى (ففروا) ينبىء عن سرعة الإهلاك كأنه يقول الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء فى الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعا وفروا (الثانية) قوله تعالى (إلى الله) بيان المهروب إليه ولم يذكر الذى منه الهرب لأحد وجهين، إما لكونه معلوما وهو هول العذاب أو الشيطان الذى قال فيه (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) وإما ليكون عاما كأنه يقول : كل ماعدا الله عدوكم ففروا إليه من كل ماعداه، وبيانه وهو أن كل ماعداه فانه يتلف عليك رأس مالك الذى هو العمر، ويفوت عليك ماهو الحق والخير، ومتلف رأس المال مفوت الكمال عدو، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لافناء معه (والثالثة) الفاء للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد ففروا إليه واتركوا غيره تركا مؤبداً (الرابعة) فى تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال (والسماء بنيناها والأرض فرشناها) ومن كل شىء خلقنا، ثم جعل الكلام للنبى عليه السلام وقال (ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين) ولم يقل ففروا إلينا، وذلك لأن لاختلاف الكلام تأثيراً، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيراً، ولهذا يكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذى حاد عن الجادة، ويجعل الكلام مختلفا، نوعا ترغيبا ونوعا ترهيبا، وتنبيها بالحكاية، ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع، لما فى أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر، والله تعالى ذكر أنواعا من الكلام وكثيراً من الاستدلالات والآيات وذكر طرفا صالحاً من الحكايات، ثم ذكر كلاما من متكلم آخر هو النبى ﷺ، ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا وقوله (إنى لكم منه نذير) إشارة إلى الرسالة.

وفيه أيضاً لطائف (إحداها) أن الله تعالى بين عظمته بقوله (والسماء بنيناها) (والأرض فرشناها) وهيبته بقوله (فنبذناهم فى اليم) وقوله تعالى (أرسلنا عليهم الريح العقيم) وقوله (فأخذتهم الصاعقة) وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار، فحكايات لوط تدل على أن التراب الذى منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك فى قوم فرعون والهواء فى عاد والنار فى ثمود، ولعل ترتيب الحكايات الأربع للترتيب الذى فى العناصر الأربعة وقد ذكرنا فى سورة العنكبوت شيئا منه، ثم إذ أبان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلاردافه بذكر الرسول فائدة (ثانيها) فى الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل إليه وههنا ذكر الكل، فقوله (لكم) إشارة إلى المرسل إليهم وقوله (منه) إشارة إلى المرسل وقوله (نذير) بيان للرسول، وقدم المرسل إليه فى الذكر، لأن المرسل إليه أدخل فى أمر الرسالة

وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

لأن عنده يتم الأمر ، والملك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيراً أو بشيراً لايرسل وإن كان ملكا عظيما ، وإذا حصل المخالف أو الموافق برسل وإن كان غير عظيم ، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث ، وأما الرسول فباختياره ، ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة ، وأما الرسول فلا يتعين ، لأن للملك اختيار من يشاء من عباده ، فقال (منه) ثم قال (نذير) تأخيراً للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله (مبين) إشارة إلى مابه تعرف الرسالة ، لأن كل حادث له سبب وعلامة ، فالرسول هو الذى به تتم الرسالة ، ولا بدله من علامة يعرف بها ، فقوله (مبين) إشارة إليها وهى إما البرهان والمعجزة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ إتماماً للتوحيد ، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك ، وطريقة التوحيد هى الطريقة ، فالمعطل يقول لا إله أصلا ، والمشرك يقول فى الوجود آلهة ، والموحد يقول قوله الإثنين باطل ، نفى الواحد باطل ، فقوله تعالى (ففروا إلى الله) أثبت وجود الله ، ولما قال (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) نفى الأكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ، ولهذا قال مرتين ﴿إنى لكم منه نذير مبين﴾ أى فى المقامين والموضعين ، وقد ذكرنا مراراً أن المعطل إذا قال لاواجب يجعل الكل ممكناً ، فإن كل موجود ممكن ، ولكن الله فى الحقيقة موجود ، فقد جعله فى تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك ، وجعل الله كغيره ، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفى كون الإله إلهاً لما ذكرنا فى تقرير دلالة التمانع مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله الزم عجز كل واحد ، فلا يكون فى الوجود إله أصلا . فيكون نافياً للإلهية ، فيكون معطلا ، فالمعطل مشرك ، والمشرك معطل ، وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل ، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لايعلم ، والحمد لله الذى هدانا ، وقوله (ولا تجعلوا) فيه لطيفة ، وهى أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة ، لا يقال فالله متخذ لقوله (فاتخذه وكيلا) قلنا (الجواب) عنه الظاهر ، وقد سبق فى قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ .

والتفسير معلوم مما سبق ، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية ، غير أن فيه لطيفة واحدة لانتركها ، وهى أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كذب ، وحينئذ يرد عليه أسئلة (الأول) هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذى كان قبله ، وبقى القوم على ما كانوا عليه

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾

كأنبياء بنى إسرائيل مدة ، وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب (الثانى) ما الحكمة فى تقدير الله تكذيب الرسل ، ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه ؟ (الثالث) قوله (ما أتى . . . إلا قالوا) دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر ، وليس كذلك لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم ، وهم ماقالوا ذلك (والجواب عن الأول) هو أن نقول ، أما المقرر فلا نسلم أنه رسول ، بل هو نبى على دين رسول ، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضاً ضرورة . (وعن الثانى) هو أن الله لايرسل إلا عند حاجة الخلق ، وذلك عند ظهور الكفار فى العالم ، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل ، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الإيمان به ضرورياً ، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يقبل ، والجاهل إذا لم يكن المبين له فى غاية الوضوح لا يقبله فيبقى فى ورطة الضلالة ، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه ، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول : كل ماهو قضاء الله فهو خير ، والشر فى القدر ، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور ، ويجعلونها متاعاً فى الأسفار وغيرها كما ذكر الله ، والماء فيه مصلحة الشرب ، لكن النار إنما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوى ، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ، ويغرق شاة المسكين ، فالمنفعة فى القضاء والمضرة فى القدر ، وهذا الكلام له غور ، والسنة أن نقول (يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد) (وعن الثالث) أن ذلك ليس بعام ، فإنه لم يقل إلا قال كلهم ، وإنما قال (إلا قالوا) ولما كان كثير منهم ، بل أكثرهم قائلين به ، قال الله تعالى (إلا قالوا) فإن قيل : فلم لم يذكر المصدقين ، كما ذكر المكذبين ، وقال إلا قال بعضهم صدقت ، وبعضهم كذبت ؟ نقول لأن المقصود التسلية وهى على التكذيب ، فكأنه تعالى قال : لاتأس على تكذيب قومك ، فإن أقواماً قبلك كذبوا ، ورسلا كذبوا .

قوله تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ أى بذلك القول ، وهو قولهم (ساحر أو مجنون) ومعناه التعجيب ، أى كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطئوا عليه ، وقال بعضهم لبعض : لاتقولوا إلا هذا ، ثم قال : لم يكن ذلك عن التواطؤ ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله ، كما أن الملك إذا أمهل أهل بقعة ، ولم يكلفهم بشىء ، ثم قعد بعد مدة وطلبهم إلى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان ، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان ، فيحملهم ذلك على العصيان ، والقول بطاعة ملك آخر .

قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ هذه تسلية أخرى ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ، ويقول إن عدم إيمانهم لتقصيرى فى التبليغ

وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

فيجتهد فى الإنذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ، ولا يضرك التولى عنهم ، وكفرهم ليس لتقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير ، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد .

قوله تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ يعنى ليس التولى مطلقاً ، بل تول وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولى يضرك إذا كان عنهم ، ولا التذكير ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين ، وفيه معنى آخر ألطف منه ، وهو أن الهادى إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر ، فلما قال تعالى (فتول) كان يقع لمتوهم أن يقول ، فحينئذ لا يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ثواب عظيم ، فقال بلى وذلك لأن فى المؤمنين كثرة ، فإذا ذكرتهم زاد هداهم ، وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم ، فإن قوماً كثيراً إذا صلى كل واحد ركعة أو ركعتين ، وقوماً قليلا إذا صلى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة فى الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد ، فالهادى له على عبادة كل مهتد أجر ، ولا ينقص أجر المهتدى ، قال تعالى (إن لك لأجراً) أى وإن توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين ، وقوله تعالى (فإن الذكرى تنفع المؤمنين) يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يراد قوة يقينهم كما قال تعالى (ليزدادوا إيماناً) وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) وقال تعالى (زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (ثانيها) تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجىء بعدك من المؤمنين (ثالثها) هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمناً لأنه صار مؤمناً ، وإن لم يفد يوجد حسنة ويزاد فى حسنة المؤمنين فينتفعوا ، وهذا هو الذى قيل فى قوله تعالى (تلك الجنة التى أورثتموها) .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ، ولنذكرها على وجه الاستقصاء ، فنقول أما تعلقها بما قبلها فلوجوه (أحدها) أنه تعالى لما قال (وذكر) يعنى أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ماعداه تضييع الزمان (الثانى) هو أنا ذكرنا مراراً أن شغل الأنبياء منحصر فى أمرين عبادة الله وهداية الخلق ، فلما قال تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدى ، وأما العبادة فهى لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية ، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التى هى أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هو أنه لما بين حال من قبله من التكذيب ، ذكر هذه الآية ليبين سوء

صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة ، وأما التفسير ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الملائكة أيضاً من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال (بل عباد مكرمون) وقال تعالى (لا يستكبرون عن عبادته) فما الحكمة فيه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه (الأول) قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له ، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر ، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثاني) هو أن النبي ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن ، فلما قال وذكرهم مايذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أي ذكر الجن والإنس (الثالث) أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله ، فقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً بين القوم فذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق ، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها (الخامس) قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) وقال تعالى (خلق الأرض في يومين) وقال (خلقت بيدي) إلى غير ذلك ، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال (قل الروح من أمر ربي) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله (وما خلقت) إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة ، وهو باطل لقوله تعالى (خالق كل شيء) فالملك من عالم الخلق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقديم الجن على الإنس لأية حكمة ؟ نقول فيه وجوه (الأول) بعضها مر في المسألة الأولى (الثاني) هو أن العبادة سرية وجهرية ، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم ، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه ، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملا وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة ؟ تقول المعتزلة تمسكوا به ، وقالوا أفعال الله تعالى لأغراض وبالغوا في الإنكار على منكري ذلك ، ونحن نقول فيه وجوه (الأول) أن التعليل لفظي ومعنوي ، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة ، مثاله إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير ، ففي المعنى المقصود ذلك ، وفي اللفظ لا يصح ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لاستفيد حسنة يقال

هذا ليس بشيء ولا يصح عليه ، ولو قال قائل فى مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق ، فالتعليل اللفظى هو جعل المنفعه المعتبرة علة للفعل الذى فيه المنفعة ، يقال اتجر الربح ، وإن لم يكن فى الحقيقة له ، إذا عرفت هذا ، فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس ، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظاً والنزاع فى الحقيقة فى اللفظ (الثانى) هو أن ذلك تقدير كالتمنى والترجى فى كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها ، كما قلنا فى قوله تعالى (لعله يتذكر) أى بحيث يصير تذكره عندكم مرجواً وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أى يصير إهلاكه عندكم مرجواً تقولون إنه قرب (الثالث) هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضاً كما فى الوقت قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) والمراد المقارنة ، وكذلك فى جميع الصور وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أى بفرض العبادة أى خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ، والذى يدل على عدم جواز التعليل الحقيقى هو أن الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره ، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا يكون علة ، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلا هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة ، وأما النصوص فأكثر من أن تعد وهى على أنواع ، منها مايدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى (يضل من يشاء) وأمثاله ومنها مايدل على أن الأشياء كلها بخلق الله كقوله تعالى (خالق كل شيء) ومنها الصرايح التى تدل على عدم ذلك ، كقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) وقوله تعالى (يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد) والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولى لا إلى المفسر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وقال (ليعبدون) فهل بينها اختلاف ؟ نقول ليس كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف ، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك (أكرمكم عند الله أتقاكم) دليل على ماذكره ههنا وموافق له ، لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملا ، فيكون المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون أكرم وأعز ، كالشيء الذى منفعته فائدة ، وبعض أفراده يكون أنفع فى تلك الفائدة ، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر ، فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما العبادة التى خلق الجن والإنس لها ؟ قلنا : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما ، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان ، ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والإكرام لا يعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾

الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل فى نوعى العبادة ، وقيل إن معناه ليعرفونى ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه « كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف » .

قوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ وفيه جواب سؤال وهو أن الخالق للغرض ينبىء عن الحاجة ، فقال ماخلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لى ، وذلك لأن منفعة العبد فى حق السيد أن يكتسب له ، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه ، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر ، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج إلى إخراج مال ، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب فقال تعالى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى لست كالسادة فى طلب العبادة بل هم الرابحون فى عبادتهم ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة ، وذلك لأن الفعل فى العرف لابد له من منفعة ، لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد ، والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ، ووضع اليمين على الشمال لديه ، وقسم منهم للانتفاع بهم فى تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها فقال تعالى إنى خلقتهم فلابد فيهم من منفعة فليتفكروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك ، فما أريد منهم من رزق ، أو هل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطابخ والخوانى الذى يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون ، فإذن هم عبيد من القسم الأول فينبغى أن لا يتركوا التعظيم ، وفيه لطائف نذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى تكرار الإرادتين ، ومن لا يريد من أحد رزقاً لا يريد أن يطعمه ؟ نقول هو لما ذكرناه من قبل ، وهو أن السيد قد يطلب من العبد الكسب له ، وهو طلب الرزق منه ، وقد يكون للسيد مال وافر يستغنى عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله ، فالسيد قال لا أريد ذلك ولا هذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لا أطلب منك الإعانة ولا ممن هو أقوى ولا يعكس ، ويقال فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين ولا يعكس ، فقال ههنا لا أطلب منكم رزقاً ولا ماهو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدى السيد فان ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان الكسب لا يطلب منهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال ماأريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من الطعام هل تحصل هذه الفائدة ؟ نقول على ما انفصل لا وذلك لأن بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى ، وإن لم يشتغل ، كالعبد المتكسب إذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلباً يرضى منه السيد إذا كان شغله التكسب ، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل ، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب فربما لايرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى ، فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ، ولم يقل وما أريد منهم من طعام هذا مع ما فى اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المعنى به ماذكرت ، فما فائدة الإطعام وتخصيصه بالذكر مع أن المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم ؟ نقول لما عمم فى المطلب الأول اكتفى بقوله (من رزق) فإنه يفيد العموم ، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام ، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن تستعين السيد بعبده أو جاريته فى تهيئة أمر الطعام ، ونفى الأدنى يستتبعه نفى الأعلى بطريق الأولى فصار كأنه تعالى قال (ما أريد منهم) من عين ولا عمل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره ، لأن السيد قد يشترى العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم ، بل تشتريه للتجارة والربح فيه ، نقول عموم قوله (ما أريد منهم من رزق) يتناول ذلك فإن من اشترى عبداً ليتجر فيه فقد طلب منه رزقاً .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما أريد فى العربية يفيد النفى فى الحال ، والتخصيص بالذكر يوهم نفى ماعدا المذكور ، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقاً لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، فلم يقل لاأريد منهم من رزق ولاأريد ؟ نقول ماللنفى فى الحال ، ولا للنفى فى الاستقبال . فالقائل إذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو فى الفعل لا يصدق ، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ، ولو قال مايفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة ، مثاله إذا كان الإنسان فى الصلاة وقال قائل إنه مايصلى فانظر إليه فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول إنك لا تصلى ، ولو قال القائل إنه مايصلى فى تلك الحالة لما صدق ، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفى فى الحال أولى لأن المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو فى أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله (ما أريد) أى فى هذه الحالة الراهنة التى هى ساعة الدنيا ، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله (ما أريد) مفيداً للنفى العام ولو قال لاأريد لما أفاد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ تعليلا لما تقدم من الأمرين ، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى (ذو القوة) تعليل لعدم طلب العمل ، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزاً لا قوة له ، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإنى أنا الرزاق ولا عمل فإنى قوي وفيه مباحث (الأول) قال (ما أريد) ولم يقل إنى

رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب (إن الله) فما الحكمة فيه ؟ نقول قد روى أن النبي ﷺ قرأ (إني أنا الرزاق) على ما ذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه (الأول) أن يكون المعنى قل يا محمد (إن الله هو الرزاق) (الثاني) أن يكون ذلك من باب الإلتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب ، وفيه ههنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزاقاً وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مراراً وتمسكنا بقوله تعالى (ويذرك وآلهتك) أي معبوديك وإذا كان الله هو المعبود ورزق للعبد استعمله في غير الكسب إذ رزقه على السيد وههنا لما قال (ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فقد بين أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى (إن الله هو الرزاق) بلفظ الله الدال على كونه رزاقاً ، ولو قال إني أنا الرزاق لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا (الثالث) أن يكون قل مضمراً عند قوله تعالى (ما أريد منهم) تقديره قل يا محمد (ما أريد منهم من رزق) فيكون بمعنى قوله (قل ما أسألكم عليه من أجر) ويكون على هذا قوله تعالى (إن الله هو الرزاق) من قول النبي ﷺ ولم يقل القوى ، بل قال (ذو القوة) وذلك لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير ، ولكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحداً فإن كثيراً من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق ، فإذا كثر منه الرزق قل منه الطلب ، لأن المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه ، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلا بالمبالغة في وصف الرزق ، فقال (الرزاق) وأما ما يغني عن الإستعانة بالغير فدون ذلك : وذلك لأن القوى إذا كان في غاية القوة يعين الغير فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به ، وإذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ، ولما قال (وما أريد أن يطعمون) كفاه بيان نفس القوة فقال (ذو القوة) إفادة معنى القوة دون القوى لأن ذا لا يقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمي ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق إلى غير ذلك مما لا يلزمه لزوماً بيناً ، ولا يقال في الثلاثة ذات فردية ولا في الأربعة ذات زوجية ، ولهذا لم يرد في الأوصاف الحقيقية التي ليست مأخوذة من الأفعال ولذا لم يسمع ذو الوجود وذو الحياة ولا ذو العلم ويقال في الإنسان ذو علم وذو حياة لأنها عرض فيه عارض لا لازم بين ، وفي صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيراً وذو الخلق قليلا لأن ذا كذا بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين ، والذي يؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وفوق كل ذي علم عليم) فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقوى ، ويؤيده أيضاً أنه تعالى قال (فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب) وقال تعالى (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) وقال تعالى (لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوى عزيز) لأن في هذه الصور كان المراد بيان القيام بالأفعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر ما ، ومن يقوم مستبداً

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بالفعل لا بد له من قوة عظيمة ، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ، ولو بين هذا البحث فى معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ههنا وبين قوله قوى فى تلك المواضع لكان أحسن ، فإن قيل فقد قال تعالى (ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله قوى لبيان أنه غير محتاج إلى النصرة وإنما يريد أن يعلم ليثيب الناصر ، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفى فيه قوة ما ، فلم لم يقل إن الله ذو القوة ؟ نقول فيه إنه تعالى قال من ينصره ورسله ، ومعناه أنه يغنى رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين . وإلا فالله تعالى وعدهم بالنصر حيث قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) ولما ذكر الرسل قال قوى يكون ذلك تقوية تقارب رسله المؤمنين ، وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين .

(البحث الثانى) قال (المتين) وذلك لأن (ذو القوة) كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما فزاد فى الوصف بياناً وهو الذى له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظاً ومعنى فإن متن الشىء هو أصله الذى عليه ثباته ، والمتن هو الظهر الذى عليه أساس البدن ، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى فى مواضع ذكر القوة والعزة فقال (قوى عزيز) وقال القوى العزيز .

وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث فى القوى وذى القوة ، وذلك لأن المتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ، ففى المتين أنه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم ، وفى العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام ، والعزة أكمل من المتانة ، كما أن القوى أكمل من ذى القوة ، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه ، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت فى كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ ،

وهو مناسب لما قبله وذلك لأنه تعالى بين أن من يضع نفسه فى موضع عبادة غير الله يكون وضع الشىء فى غير موضعه فيكون ظالماً ، فقال إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم ، وذلك لأن الشىء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه ، لا يحفظ وإن كان فى موضع يخلى المكان عنه ، ألا ترى أن الدابة التى لا يبقى منتفعاً بها بالموت أو بمرض يخلى عنها الإصطبل ، والطعام الذى يتعفن يبدد ويفرغ منه الإناء ، فكذلك الكافر

إذا ظلم ، ووضع نفسه فى غير موضعه ، خرج عن الانتفاع لحسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيما يتعلق به الفاء ، وقد ذكرنا لك فى وجه التعلق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما مناسبة الذنوب ؟ نقول العذاب مصبوب عليهم ، كأنه قال تعالى نصب من فوق رءوسهم ذنوباً كذنوب صب فوق رءوس أولئك ، ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيشهم الطيب ، فكأنه تعالى قال (فإن للذين ظلموا) من الدنيا وطيباتها (ذنوباً) أى ملاء ، ولا يكون لهم فى الآخرة من نصيب ، كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوباً وتركوها ، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك ، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية ، وقوله تعالى (فلا يستعجلون) فإن الرزق مالم يفرغ لا يأتى الأجل .

ثم أعاد ماذكر فى أول السورة فقال (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

٥١ — سورة الذاريات

(مكية وهى ستون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ٥١ الذاريات

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ٥١ الذاريات

﴿ سورة الذاريات مكية وآياتها ستون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والذاريات ذرواً) أى الرياح التى تذرو التراب وغيرها وقرىء
٢ بإدغام التاء فى الذال (فالحاملات وقراً) أى السحب الحاملة للمطر أو الرياح الحاملة للسحاب وقرىء
٣ وقرأ على تسمية المحمول بالمصدر (فالجاريات يسراً) أى السفن الجارية فى البحر أو الرياح الجارية
فى مهابها أو السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح أو الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسراً
٤ صفة لمصدر محذوف أى جرياً ذا يسر (فالمقسمات أمراً) أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار
والأرزاق وغيرها أو السحب التى يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد جوز أن يراد بالكل الرياح
تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فإنها كما تذر وما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجرى
فى الجو جرياً سهلا وتقسم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار فإن حملت الأمور المقسم بها على
ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة وإلا فهى
لترتيب ماصدر عن الريح من الأفاعيل فإنها تذر الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً فتجرى به باسطة
٥، ٦ له إلى ما أمرت به فتقسم المطر وقوله تعالى (إنما توعدون لصادق) (وإن الدين لواقع) جواب
للقسم وفى تخصيص الأمور المذكورة بالأقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها
من حيث أنها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة
أو مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ٥١ الذاريات

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ٥١ الذاريات

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ٥١ الذاريات

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ٥١ الذاريات

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ٥١ الذاريات

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ٥١ الذاريات

(والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق المستوى وقال سعيد بن جبير ذات ٧
الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطرائق والمراد إما الطرائق
المحسوسة التى هى مسير الكواكب أو المعقولة التى يسلكها النظار أو النجوم فإن لها طرائق وعن الحسن
حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشي طرائق الوشي وهي إما جمع حباك أو حبيكة كمثال ومثل
وطريقة وطرق وقرىء الحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك
كالإبل (إنكم لفى قول مختلف) أى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام تارة ٨
شاعر وأخرى ساحر وأخرى مجنون وفى شأن القرآن الكريم تارة شعر وأخرى سحر وأخرى أساطير
وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك من أن قول
الكفرة لا يكون مستوياً إنما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها
وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك (يؤفك عنه من أفك) ٩
أى يصرف عن القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف إذ لا صرف أفظع منه وأشد وقيل
يصرف عنه من صرف فى علم الله تعالى وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر
إفك من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك أى من أفك الناس
وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الإيمان (قتل الخراصون) دعاء عليهم كقوله تعالى قتل ١٠
الإنسان ما أكفره وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن والخراصون الكذابون المقدرون
ما لا صحة له وهم أصحاب القول المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرىء قتل الخراصين أى
قتل الله (الذين هم فى غمرة) من الجهل والضلال (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أيان ١١،١٢
يوم الدين) أى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء
وقرىء إيان بكسر الهمزة (يوم هم على النار يفتنون) جواب للسؤال أى يقع يوم هم على النار يحرقون ١٣

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ٥١ الذاريات

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ٥١ الذاريات

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ٥١ الذاريات

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ٥١ الذاريات

ويعذبون ويجوز أن يكون يوم خبراً لمبتدأ محذوف أى هو يوم هم الخ والفتح لإضافته إلى غيرمتمكن
١٤ ويؤيده أنه قرىء بالرفع (ذوقوا فتنتكم) أى مقولا لهم هذا القول وقوله تعالى (هذا الذى كنتم به
تستعجلون) جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر أى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق
١٥ الاستهزاء ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذى صفته (إن المتقين فى جنات
١٦ وعيون) لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها (آخذين ما آتاهم ربهم) أى قابلين لما أعطاهم راضين به على
• معنى أن كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول (إنهم كانوا قبل ذلك) فى الدنيا (محسنين) أى
لأعمالهم الصالحة آتين بها على ماينبغى فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ومعنى الإحسان بالإجمال
ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقد فسر
١٧ بقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل على أن قليلا
ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا على أنه صفة المصدر وما مزيدة فى الوجهين ويجوز أن تكون
مصدرية أو موصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو مايهجعون فيه
وفيه للمبالغات فى تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت الراحة والهجوع
الذى هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى أنهم لايهجعون من الليل قليلا
١٨ بل يحيونه كله لما أن ما النافية لايعمل مابعدها فيما قبلها (وبالأسحار هم يستغفرون) أى هم مع قلة
هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار فى الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفى
بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم
١٩ له وإطنابهم فيه (وفى أموالهم حق) أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى
• وإشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدى والمتعفف الذى يحسبه الناس غنياً فيحرم الصادقة
٢٠ (وفى الأرض آيات للموقنين) أى دلائل واضحة على شؤنه تعالى على التفاصيل من حيث أنها مدحوة

وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٥١ الذاريات

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ٥١ الذاريات

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ٥١ الذاريات

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ٥١ الذاريات

كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتنة وأنها تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنها
٢١ ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم (وفى أنفسكم) أى وفى أنفسكم آيات إذ ليس فى العالم شىء إلا وفى الأنفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة (أفلا تبصرون) أى ألا ٭
٢٢ تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة (وفى السماء رزقكم) أى أسباب رزقكم أو تقديره وقيل المراد بالسماء السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات (وما توعدون) من الثواب لأن الجنة فى السماء ٭
٢٣ السابعة أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل إنه مبتدأ خبره قوله تعالى (فورب السماء والأرض إنه لحق) على أن الضمير لما وأما على الأول فأماله وأما لما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنه مستعار لاسم الإشارة (مثل ما أنكم تنطقون) أى كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى ٭
أن لاتشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن فى لحق أوعلى أنه وصف لمصدر محذوف أى إنه لحق حقاً مثل نطقكم وقيل إنه مبنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت عبارة
٢٤ عن شىء وأن بما فى حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحى والضيف فى الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثنى عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفاً لأنهم كانوا فى صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى أو عند إبراهيم حيث خدمهم ٭
٢٥ بنفسه وبزوجته (إذ دخلوا عليه) ظرف للحديث أو لما فى الضيف من معنى الفعل أو المكرمين إن فسر بإكرام إبراهيم (فقالوا سلاماً) أى نسلم عليك سلاماً (قال) أى إبراهيم (سلام) أى عليكم ٭
سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ٥١ الذاريات

فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ٥١ الذاريات

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ٥١ الذاريات

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ٥١ الذاريات

قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ٥١ الذاريات

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ٥١ الذاريات

* أحسن من تحيتهم وقرئا مرفوعين وقرىء سلم وقرىء منصوباً والمعنى واحد (قوم منكرون) أنكرهم
عليه الصلاة والسلام للسلام الذى هو علم للإسلام أو لأنهم ليسوا ممن عهدهم من الناس أو لأن أوضاعهم
وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله فى نفسه من غير أن يشعرهم بذلك
لا أنه خاطبهم به جهراً أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم
٢٦ يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة (فراغ إلى أهله) أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه
فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى ويبادر به حذاراً من أن يكفه ويعذره أو يصير منتظراً
* والفاء فى قوله تعالى (فجاء بعجل سمين) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها
وإيذاناً بكمال سرعة المجىء بالطعام كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فذبح عجلا
٢٧ فحنذه فجاء به (فقربه إليهم) بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد (قال ألا تأكلون) إنكار لعدم تعرضهم
٢٨ للأكل (فأوجس منهم) أضمر فى نفسه (خيفة) لتوهم أنهم جاؤا للشر وقيل وقع فى قلبه أنهم ملائكة
* جاؤا للعذاب (قالوا لا تخف) قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه
* فعرفهم وأمن منهم (وبشروه) وفى سورة الصافات وبشرناه أى بواسطتهم (بغلام) هو إسحاق
٢٩ عليه السلام (عليم) عنه بلوغه واستوائه (فأقبلت امرأته) سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت
* فى زاوية تنظر إليهم (فى صرة) فى صيحة من الصرير ومحله النصب على الحالية أو المفعولية إن جعل
* أقبلت بمعنى أخذت كما يقال أقبل يشتمنى (فصكت وجهها) أى لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم
* الطمث وقيل ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب (وقالت عجوز عقيم) أى أنا عجوز عاقر
٣٠ فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك القول الكريم (قال ربك) وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى
* لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا (إنه هو الحكيم العليم) فيكون قوله حقاً وفعله متقناً لا محالة . روى
أن جبريل عليه السلام قال لها انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن
هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم عليه السلام أيضاً حسبما شرح فى سورة الحجر وإنما لم يذكر
٣١ ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفى سورة هود (قال)

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ٥١ الذاريات

لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ ٥١ الذاريات

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ٥١ الذاريات

فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ٥١ الذاريات

فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ٥١ الذاريات

وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ ٥١ الذاريات

فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ ٥١ الذاريات

أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر (فما خطبكم) أى شأنكم الخطير الذى *
لأجله أرسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون) (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط ٣٢
(لنرسل عليهم) أى بعد ماقلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة (حجارة ٣٣
من طين) أى طين متحجر هو السجيل (مسومة) مرسلة من أسمت الماشية أى أرسلتها أو معلمة من ٣٤
المسومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود (عند ربك للمسرفين) المجاوزين الحد فى الفجور *
وقوله تعالى (فأخرجنا) الخ حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال ٣٥
بعد حكاية ماجرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل
قد حذفت ثقة بذكرها فى مواضع أخر كأنه قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك
الخ (من كان فيها) أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها (من المؤمنين) ممن آمن بلوط *
(فما وجدنا فيها غير بيت) أى غير أهل بيت (من المسلمين) قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط وأهل ٣٦
بيته الذين نجوا ثلاثة عشر (وتركنا فيها) أى فى القرية (آية) أى علامة دالة على ماأصابهم من العذاب ٣٧
قيل هى تلك الأحجار أو صخر منضود فيها أو ماء منتن (للذين يخافون العذاب الأليم) أى من شأنهم *
أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها
ولا يعدونها آية (وفى موسى) عطف على قوله تعالى وفى الأرض أو على قوله تعالى وتركنا فيها آية ٣٨
على معنى وجعلنا فى موسى آية كقول من قال علفتها تبناً وماء بارداً (إذ أرسلنا) قيل هو منصوب بآية *
وقيل بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا وقيل بتركنا (إلى فرعون بسلطان مبين) هو ماظهر على يديه *
من المعجزات الباهرة (فتولى بركنه) أى فأعرض عن الإيمان به وازور كقوله تعالى ونأى بجانبه ٣٩

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ٥١ الذاريات

مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ٥١ الذاريات

فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ٥١ الذاريات

فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ٥١ الذاريات

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ٥١ الذاريات

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ٥١ الذاريات

وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فإن الركن اسم لما يركن إليه الشىء وقرىء بركنه بضم
* الكاف (وقال ساحر) أى هو ساحر (أو مجنون) كأنه نسب ماظهر على يديه عليه الصلاة والسلام
٤٠ من الخوارق العجيبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما (فأخذناه وجنوده فنبذناهم
* فى اليم) وفيه من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه (وهو مليم) أى
٤١ آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والجملة حال من الضمير فى فأخذناه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم
الريح العقيم) وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم أو لأنها لم تتضمن خيراً ما من إنشاء مطر
٤٢ أو إلقاح شجر وهى النكباء أو الدبور أو الجنوب (ماتذر من شىء أتت عليه) أى جرت عليه (إلا
٤٣ جعلته كالرميم) هو كل مارم وبلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا
حتى حين) وهو قوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام قيل قال لهم صالح عليه السلام تصبح وجوهكم
٤٤ غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (فعتوا عن أمر ربهم) أى
* فاستكبروا عن الامتثال به (فأخذتهم الصاعقة) قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح عليه السلام
من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى إلى أرض
فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرىء الصعقة
٤٥ وهى المرة من الصعق (وهم ينظرون) إليها ويعاينونها (فما استطاعوا من قيام) كقوله تعالى فأصبحوا
٤٦ فى دارهم جاثمين (وما كانوا منتصرين) بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم (وقوم نوح) أى وأهلكنا قوم
نوح فإن ماقبله يدل عليه أو واذكر ويجوز أن يكون معطوفا على محل عاد ويؤيده القراءة بالجر وقيل
* هو معطوف على مفعول فأخذناه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المهلكين (إنهم كانوا قوماً فاسقين)
٤٧ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى (والسماء بنيناها بأيد) أى بقوة (وإنا لموسعون)

وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ — ٥١ الذاريات

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ — ٥١ الذاريات

فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ — ٥١ الذاريات

وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ — ٥١ الذاريات

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ — ٥١ الذاريات

لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق أو لموسعون السماء أو ما بينها وبين الأرض
أو الرزق (والأرض فرشناها) مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها (فنعم الماهدون) أى نحن ٤٨
(ومن كل شىء) أى من الأجناس (زوجين) أى نوعين ذكراً وأنثى وقيل متقابلين السماء والأرض ٤٩
والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك (لعلكم تذكرون) أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا *
فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله
تعالى (ففروا إلى الله) مقدر لقول خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء إما لترتيب ٥٠
الأمر على ما حكى من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها كأنه
قيل قل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذى هذه شؤنه بالإيمان والطاعة كى تنجوا من عقابه
وتفوزوا بثوابه وإما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم
فتذكروا ففروا إلى الله الخ وقوله تعالى (إنى لكم منه نذير مبين) تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أ
لوجوب الامتثال به فإن كونه عليه الصلاة والسلام منذراً منه تعالى موجب عليه عليه الصلاة والسلا
أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به أى إنى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذراً منه
أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به وفى أمره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم
بالهرب إليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه
وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) نهى ٥١
موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى (إنى لكم منه) أ
من الجعل المنهى عنه (نذير مبين) فإن تعلق كلمة من بالإنذار مع كون صلته الباء بتضمينه معنى الإفر *
يقال فر منه أى هرب وأفره غيره كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً أو قولاً إلهاً آخر
وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما قيل بل بالنهى
عن سببه وإيجاب الفرار (كذلك) أى الأمر مثل ما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحراً ٥٢
أو مجنوناً وقوله تعالى (ما أتى الذين من قبلهم) الخ تفسير له أى ما أتاهم (من رسول) من رسل الله *
(إلا قالوا) فى حقه (ساحر أو مجنون) ولا سبيل إلى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل ما بعد *

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ٥١ الذاريات

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ٥١ الذاريات

وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ٥١ الذاريات

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ٥١ الذاريات

---

٥٣ ما النافية فيما قبلها (أتواصوا به) إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي
لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلا عن التفوه بها أي أوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا
عليه وقوله تعالى (بل هم قوم طاغون) إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك وإثبات
لكونه أمراً أقبح من التواصي وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة
الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون
٥٤ ذلك مقتضى طباعهم (فتول عنهم) فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء
٥٥ (فما أنت بملوم) على التولي بعد ما بذلت المجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود (وذكر) أي
افعل التذكير والموعظة ولا تدعهما بالمرة أو فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الأمر (فإن الذكرى
تنفع المؤمنين) أي الذين قدر الله تعالى إيمانهم أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في
٥٦ اليقين (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن
كون خلقهم مغياً بعبادته تعالى مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ
ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم
مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية
على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة مما
لا نزاع فيه قطعاً كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وإنما الذي لا يليق بجنابه عز وجل
تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل
بالفعل من كل وجه وأما بمعنى نهاية كمالية يفضي إليها فعل الفاعل الحق فغير منفي من أفعاله تعالى بل
كلها جارية على المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكفي في تحقق معنى التعليل على
ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام وأما إرادة الفاعل لها فليست
من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الإرادة فإن تعوق
البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضد المبادي وتآخذ المقدمات الموصلة إليها لا يمنع كونها غاية كما
في قوله تعالى كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ونظائره وقيل المعنى إلا ليؤمروا
بعبادتي كما في قوله تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً وقيل المراد سعداء الجنسين كما أن المراد

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ٥١ الذاريات

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ٥١ الذاريات

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ٥١ الذاريات

بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس أشقياؤهما ويعضده قراءة من قرأ وما خلقت
الجن والإنس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوى معناه إلا ليعرفوه ومداره قوله صلى الله عليه
وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ولعل السر
فى التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق إطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على أن المعتبر هى
٥٧ المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)
بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا
بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم أى ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم بل أتفضل
٥٨ عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى (إن الله هو الرزاق)
* الذى يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق وفيه تلويح بأنه غنى عنه وقرىء إنى أنا الرزاق (ذو القوة المتين)
بالرفع على أنه نعت للرزاق أو لذو أو خبر بعد خبر أو خبر لمضمر وقرىء بالجر على أنه وصف
٥٩ للقوة على تأويل الاقتدار أو الأيد (فإن للذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد
* بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم أهل مكة (ذنوباً)
* أى نصيباً وافراً من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية وهو مأخوذ
* من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء (فلا يستعجلون) أى لا يطلبوا منى أن أعجل
فى المجىء به يقال استعجله أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله أى طلب وقوعه بالعجلة
٦٠ ومنه قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وهو جواب لقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (فويل
للذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعاراً
بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيما كما أن الفاء الأولى لترتيب النهى
* عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى (من يومهم الذى يوعدون) للتعليل أى يوعدونه من يوم
بدر وقيل يوم القيامة وهو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية والأول هو الأوفق لما قبله
من حيث أنهما من العذاب الدنيوى. عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات أعطاه الله تعالى
عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا.

﴿ سورة الذاريات (١) ﴾

﴿ مكية ﴾ كما روى عن ابن عباس. وابن الزبير رضى الله تعالى عنهما ـ ولم يحك فى ذلك خلاف ـ وهى ستون
آية بالاتفاق كما فى كتاب العدد ، ومناسبتها لسورة (ق) أنها لما ختمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء
والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق ، وأن الجزاء لواقع ، وأنه
قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الاجمال ، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى
غير ذلك مما يظهر للمتأمل *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ١ ﴾ أى الرياح التى تذروا التراب وغيره من ـ ذرا ـ المعتل
بمعنى فرق وبدد ما رفعه عن مكانه ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٢ ﴾ أى حملا وهى السحب الحاملة للمطر *
﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٣ ﴾ أى جرياً سهلا إلى حيث سيرت وهى السفن ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ٤ ﴾ هى الملائكة الذين
يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به ، وتفسير كل بما فسر به قد صح روايته من طرق عن على كرم الله
تعالى وجهه ، وفى بعض الروايات أن ابن الكواء سأله عن ذلك وهو رضى الله تعالى عنه يخطب على المنبر فأجاب
بما ذكر ، وفى بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير مأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

أخرج البزار . والدارقطنى فى الافراد . وابن مردويه . وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: «جاء صبيغ
التميمى إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال: أخبرنى عن (الذاريات ذرواً) قال: هى الرياح، ولولا أنى
سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى عن (الحاملات وقراً) قال. هى السحاب
ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى (عن الجاريات يسراً) قال:
هى السفن ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته، قال: فأخبرنى عن (المقسمات أمراً)
قال: هى الملائكة ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل
فى بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبى موسى الأشعرى امنع الناس من مجالسته
فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالايمان المغلظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر
رضى الله تعالى عنه ما أخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس » *

ويدل هذا أن الرجل لم يكن سليم القلب وأن سؤاله لم يكن طلبا للعلم وإلا لم يصنع به عمر رضى الله تعالى عنه ما صنع *
وفى رواية عن ابن عباس أن ـ الحاملات ـ هى السفن الموقرة بالناس وأمتعتهم ، وقيل : هى الحوامل
من جميع الحيوانات ، وقيل: الجاريات السحب تجرى وتسير إلى حيث شاء الله عز وجل ، وقيل: هى الكواكب

---

(١) ﴿تنبيه﴾ جرينا هنا فى تقسيم هذا الجزء هكذا لما هو المشهور من تجزئة الأجزاء الأربعة الأواخر لذلك
ليكون أول كل جزء منها أول سورة وإن كانت تجزئة المصاحف فى هذا الجزء هى قوله .(قال فما خطبكم أيها المرسلون)

التى تجرى فى منازلها وكلها لها حركة وإن اختلفت سرعة وبطأ كما بين فى موضعه ، وقيل: هى الكواكب السبعة الشهيرة وتسمى السيارة ، وقيل : (الذاريات) النساء الولود فانهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح ، وباقى المتعاطفات على ماسمعت أولا ، وقيل : (الذاريات) هى الأسباب التى تذرى الخلائق على تشبيه الاسباب المعدة للبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها ، وقيل : الحاملات الرياح الحاملة للسحاب ، وقيل : هى الاسباب الحاملة لمسبباتها مجازاً ، وقيل: الجاريات الرياح تجرى فى مهابها ، وقيل: المقسمات السحب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد ، وقيل : هى الكواكب السبعة السيارة - وهو قول باطل - لا يقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد ، وفى صحيح البخارى عن قتادة « خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء . ورجوما للشياطين . وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا يعلم » وزاد رزين « ومالا علم له به وماعجز عن علمه الانبياء والملائكة » وعن الربيع مثله وزاد « والله ماجعل الله تعالى فى نجم حياة أحد ولارزقه ولاموته وإنما يفترون على الله تعالى الكذب ويتعللون بالنجوم » ذكره صاحب جامع الاصول ، وقدمر الكلام فى إبطال ماقاله المنجمون مفصلا فتذكر ، ولعله سيأتى إن شاء الله تعالى شئ من ذلك ، وجوز أن يراد بالجميع الرياح فانها - كما تذر - وما تذروه تثير السحاب وتحمله ، وتجرى فى الجو جرياً سهلا - وتقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار - والمعول عليه ماروى عن عمر رضى الله تعالى عنه سامعاً له من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - وقاله باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه على المنبر - واليه كما نقل عن الزجاج ذهب جميع المفسرين أى المعتبرين ، وقول الامام بعد نقله له عن الأمير : الأقرب أن تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح جسارة عظيمة على مالا يسلم له ، وجهل منه بما رواه ابن المسيب من الخبر الدال على أن ذلك تفسير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأين منه الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه *

وقول صاحب الكشف : إنه شديد الطباق للمقام ولذا آثره الامام لا أسلمه له أيضا إذا صح الحديث ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما فى المعول عليه فالفاء للترتيب فى الاقسام ذكراً ورتبة باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته عز وجل ، وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر إذا نظر لها ذو نظر صحيح ، وقيل : الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منا ، وإن حملت على واحد وهو الرياح فهى لترتيب الافعال والصفات إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولا حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانيا وتجرى به ثالثاً ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى ثم تقسم أمطاره ، وقيل : إذا حملت الذاريات والحاملات على النساء ، فالظاهر أنها للتفاوت فى الدلالة على كمال القدرة فتدبر *

ونصب (ذرواً) على أنه مفعول مطلق ، (ووقراً) على أنه مفعول به ، وجوز الامام أن يكون من باب ضربته سوطا ، و (يسراً) على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف أى جريا ذا يسر ، أو على أنه حال أى ميسرة كما نقل عن سيبويه ، و (أمراً) على أنه مفعول به وهو واحد الامور ، وقد أريد به الجمع ولم يعبر به لان الفرد أنسب برءوس الآى مع ظهور الامر ، وقيل : على أنه حال أى مأمورة ، والمفعول به محذوف أو الوصف منزل منزلة اللازم أى تفعل التقسيم مأمورة ، وقرأ أبو عمرو . وحمزة (والذاريات ذرواً) بادغام التاء فى الذال ، وقرئ (وقراً) بفتح الواو على أنه مصدر وقره إذا حمله - كما أفاده كلام الزمخشرى - وناهيك

به إماماً فى اللغة ، وعلى هذاهو منصوب على أنه مفعول به أيضا على تسمية المحمول بالمصدر أو على أنه مفعول مطلق ـ لحاملات ـ من معناها كأنه قيل : فالحاملات حملا . وقوله تعالى شأنه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦ ﴾ جواب للقسم، و(ما) موصولة والعائد محذوف أى إن الذى توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أن تكون مصدرية أى إن وعدكم، أو وعيدكم إذ توعدون يحتمل أن يكون مضارع وعد ، وأن يكون مضارع أوعد ، ولعل الثانى أنسب لقوله تعالى : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ولأن المقصود التخويف والتهويل ، وعن مجاهد أن الآية فى الكفار وهو يؤيد الوعيد ومعنى صدقه تحقق وقوعه ، وفى الكشاف وعد صادق ـ كعيشة راضية ـ و (الدين) الجزاء ووقوعه حصوله ، والاكثرون على أن الموعود هو البعث ، وفى تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة فمن قدر عليها فهو قادر على تحقيق البعث الموعود ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧ ﴾ أى الطرق جمع حبيكة كطريقة ، أو حباك كمثال ومثل ، ويقال : حبك الماء للتكسر الجارى فيه إذ مرت عليه الريح ، وعليه قول زهير يصف غديراً :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك (١)

وحبك الشعر لآثار تثنيه وتكسره ، وتفسيرها بذلك مروى عن مقاتل . والكلبى . والضحاك ، والمراد بها إما الطرق المحسوسة التى تسير فيها الكواكب ، أو المعقولة التى تدرك بالبصيرة وهى ماتدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته جل شأنه إذا تأملها الناظر ، وقال ابن عباس . وقتادة . وعكرمة . ومجاهد . والربيع : ذات الخلق المستوى الجيد ، وفى رواية أخرى عن مجاهد المتقنة البنيان ، وقيل : ذات الصفاقة وهى أقوال متقاربة وكأن الحبك عليها من قولهم : حبكت الشئ أحكمته وأحسنت عمله وحبكت العقدة أوثقتها، وفرس محبوك المعاقم ـ وهى المفاصل ـ أى محكمها ، وفى الكشف أصل الحباكة الصفاقة وجودة الاثر، وعن الحسن ـ حبكها ـ نجومها ، والظاهر أن إطلاق الحبك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشى حبكه وطرائق وشيه فكأنه قيل : ذات النجوم التى هى كالحبك أى الطرائق فى التزيين ، واستظهر فى السماء أنه جنس أريد به جميع السموات وكون كل واحدة منها ذات حبك بمعنى مستوية الخلق جيدته ، أو متقنة البنيان أو صفيقة ، أو ذات طرق معقولة ظاهر ، وأما كون كل منها كذلك بمعنى ذات طرق محسوسة فباعتبار أن الكواكب فى أى سماء كانت تسير مسامتة لسائر السموات ، فممراتها باعتبار المسامتة طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أن النجوم فى أى سماء كانت تشاهد فى سائر السموات بناءاً على أن السموات شفافة لايحجب كل منها إدراك ما وراءه ، وأخرج ابن منيع عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هى السماء السابعة ، وعن عبد الله بن عمرو مثله فتدبر ولا تغفل ¤

وقرأ ابن عباس . والحسن بخلاف عنه . وأبو مالك الغفارى . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وابو السمال .

---

(١) قوله : (مكلل) مجرور على الوصف فى قوله : قبله ثم استعانت ـ بماء مكلل ـ ذلك الماء بأصول النبات وصارت حوله كالاكليل ، (والخريق) الريح الباردة الشديدة الهبوب و (الضاحى) الظاهر ، و (حبك الماء طرائقه) . اه إدارة الطباعة المنيرية

ونعيم عن أبى عمرو ـ الحبك ـ بإسكان الباء على زنة القفل، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طرفة وطرف وبرقة (١) وبرق، وأبو مالك الغفارى. والحسن بخلاف عنه أيضا بكسر الحاء والباء ـ كالابل ـ وهو على ما ذكر الخفاجى اسم مفرد ورد على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً، وأبو مالك. والحسن. وأبو حيوة أيضا بكسر الحاء وإسكان الباء كالسلك ـ وهو تخفيف فعل مكسور الفاء والعين وهو اسم مفرد لاجمع لأن فعلا ليس من أبنية الجموع ـ قاله فى البحر ـ وابن عباس. وأبو مالك أيضا بفتحهما كالجبل ـ قال أبو الفضل الرازى ـ فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب، والحسن أيضا بكسر الحاء وفتح الباء كالنعم، وأبو مالك أيضا بكسر الحاء وضم الباء وذكرها ابن عطية عن الحسن أيضا ثم قال: هى قراءة شاذة غير متوجهة وكأنه بعد أن كسر الحاء توهم قراءة الجمهور فضم التاء (٢) وهذا من تداخل اللغات وليس فى كلام العرب هذا البناء أى لأن فيه الانتقال من خفة إلى ثقل على عكس ضرب مبنياً للمفعول، وقال صاحب اللوامح: هو عديم النظير فى العربية فى أبنيتها وأوزانها ولا أدرى ماوراءه انتهى *

وعلى التداخل تأول النحاة هذه القراءة، وقال أبو حيان: الأحسن عندى أن يكون ذلك مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة تاء (ذات) فى الكسر ولم يعتد باللام الساكنة لأن الساكن حاجز غير حصين *

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ ﴾ أى متخالف متناقض فى أمر الله عز وجل حيث تقولون: إنه جل شأنه خالق السموات والارض وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه، وفى أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فتقولون: تارة إنه مجنون، وأخرى إنه ساحر ولا يكون الساحر إلا عاقلا، وفى أمر الحشر فتقولون: تارة لا حشر ولا حياة بعد الموت أصلا، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالايمان به، واقتصر بعضهم على كون القول المختلف فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، والجملة جواب القسم ولعل النكتة فى ذلك القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف هيآتها، أو الاشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة، أو ليست قوية محكمة، أو ليس فيها مايزينها بل فيها مايشينها من التناقض ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩ ﴾ أى يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به لدلالة الكلام السابق عليه، وقال الحسن. وقتادة: عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال غير واحد: عن القرآن، والكلام السابق مشعر بكل من صرف الصرف الذى لا أشد منه وأعظم، ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى من وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أثبت للمصروف صرف آخر حيث قيل: (يصرف عنه) المصروف فجاءت المبالغة من المضاعفة ثم الاطلاق فى المقام الخطابى له مدخل فى تقوية أمر المضاعفة وكذلك الابهام الذى فى الموصول، وهو قريب من قوله تعالى: (فغشيهم من اليم ماغشيهم)، وقيل: المراد (يصرف عنه) فى الوجود الخارجى من (صرف عنه) فى علم الله تعالى وقضائه سبحانه، وتعقب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأن كل ماهو كائن معلوم أنه ثابت فى سابق علمه تعالى الأزلى وليس فيه المبالغة السابقة، وأجيب عن الأول بأن فيه الاشارة إلى أن الحجة البالغة لله عز وجل فى صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبنى أن العلم تابع للمعلوم فافهمه، وحكى الزهراوى أنه يجوز أن يكون الضمير (لما توعدون) أو ـ للدين ـ أقسم سبحانه ـ بالذاريات ـ على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى (قول مختلف) فى وقوعه، فمنهم شاك،

---

(١) هى أرض ذات حجارة (٢) هكذا بالتاء الفوقية والظاهر أنها بالباء الموحدة

ومنهم جاحد ثم قال جل وعلا : (يؤفك) عن الاقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، وذكر ذلك الزمخشرى ولم يعزه ، وادعى صاحب الكشف أنه أوجه لتلاؤم الكلام ، وقيل: يجوز أن يكون الضمير - لقول مختلف - -وعن- للتعليل كما فى قوله تعالى: (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) وقوله :

ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن فى خصب (١)

أى يصرف بسبب ذلك القول المختلف من أراد الاسلام ، وقال الزمخشرى : حقيقته يصدر إفكهم عن القول المختلف، وهذا محتمل لبقاء - عن - على أصلها من المجاوزة واعتبار التضمين، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع مع ذهاب تلك المبالغة، وجوز ابن عطية رجوع الضمير إلى القول إلا أنه قال : المعنى يصرف عن ذلك القول المختلف بتوفيق الله تعالى للاسلام من غلبت سعادته ، وتعقبه بأن فيه مخالفة للعرف فان عرف الاستعمال فى الافك الصرف من خير إلى شر فلذلك لاتجده إلا فى المذمومين ، ثم إن ذلك على كون الخطاب فى أنكم للكفار - وهو الذى ذهب اليه ابن زيد وغيره - واستظهر أبو حيان كونه عاما للمسلم والكافر ، واستظهر العموم فيما سبق أيضا ، والقول المختلف حينئذ قول المسلمين بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقول الكفار بنقيض ذلك ، وقرأ ابن جبير . وقتادة (من أفك) مبنيا للفاعل أى من أفك الناس عنه وهم قريش، وقرأ زيد بن على - يأفك عنه من أفك - أى يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب ، وقرئ - يؤفن عنه من أفن - بالنون فيهما أى يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا أنهكه حلبا ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ١٠ ﴾ أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل الخرص الظن والتخمين ثم تجوز به عن الكذب لانه فى الغالب يكون منشأه، وقال الراغب: حقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص سواء كان مطابقاً للشئ أو مخالفا له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة فى خرصه، وكل من قال قولا على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما فى قوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون) الآية انتهى *

وفيه بحث وحقيقة - القتل - معروفة ، والمراد - بقتل - الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقى * وعن ابن عباس تفسيره باللعن قال ابن الانبارى : وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لان من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك ، وقرئ - قتل الخراصين - أى قتل الله الخراصين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ فى جهل عظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه ﴿ سَاهُونَ ١١ ﴾ غافلون عما أمروا به ، فالمراد بالسهو مطلق الغفلة *

﴿ يَسْـَٔلُونَ ﴾ أى بطريق الاستعجال استهزاءاً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ معمول ليسألون على أنه جار مجرى يقولون لما فيه من معنى القول، أو لقول مقدر - أى فيقولون متى وقوع يوم الجزاء . وقدر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف فى (أيان) ولا ضير فى جعل الزمان زمانياً فان اليوم لما جعل موعوداً ومنتظراً فى نحو قوله تعالى: (فارتقب يوم تأتى السماء) صار ملحقاً بالزمانيات وكذلك - كل يوم له شأن مثل يوم العيد . والنيروز - وهذا

(١) يصف الشاعر مضيافا يصدر الاضياف عنه شباعا يتناهون فى السمن بسبب الاكل والشرب وقالوا جمل ناه اذا كان عريقاً فى السمن اه

جار فى عرف العرب والعجم على أنه يجوز عند الأشاعرة أن يكون للزمان زمان على مافصل فى مكانه ، وقرئ (إيان) بكسر الهمزة وهى لغة ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣ ﴾ أى يحرقون، وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استعمل فى الاحراق والتعذيب ونحو ذلك، و(يوم) نصب على الظرفية لمحذوف دل عليه وقوع الكلام جوابا للسؤال مضاف للجملة الاسمية بعده - أى يقع يوم الدين يوم هم على النار - الخ ، وقال الزجاج : ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أى هو واقع، أو كائن يوم الخ، وجوز أن يكون هو نفسه خبر مبتدا محذوف، والفتحة فتحة بناء لاضافته إلى غير، وهى الجملة الاسمية فان الجمل بحسب الاصل كذلك على كلام فيه بين البصريين والكوفيين مفصل فى شرح التسهيل - أى هو يوم هم - الخ، والضمير قيل : راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب على نحو - سيقولون لله - فى جواب (من رب السموات والأرض) لان تقدير السؤال فى أى وقت يقع، وجوابه الأصلى فى يوم كذا، وإذا قلت : وقت وقوعه يوم كذا كان قائما مقامه . ويجوز أن يكون الضمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى ، فالتقدير يوم الجزاء - يوم تعذيب الكفار - ويؤيد - كونه مرفوع المحل خبراً لمبتدأ محذوف - قراءة ابن أبى عبلة . والزعفرانى (يوم هم) بالرفع، وزعم بعض النحاة أن - يوم - بدل من (يوم الدين) وفتحته على قراءة الجمهور فتحة بناء، و(يوم) ومافى حيزه من جملة كلام السائلين قالوه استهزاءاً، وحكى على المعنى، ولو حكى على اللفظ لقيل : يوم نحن على النار نفتن، وهو فى غاية البعد كما لا يخفى، وقوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ بتقدير قول وقع حالا من ضمير (يفتنون) أى مقولا لهم (ذوقوا فتنتكم) أى عذابكم المعد لكم، وقد يسمى مايحصل عنه العذاب - كالكفر - فتنة ، وجوز أن يكون منه ماهنا كأنه قيل : ذوقوا كفركم - أى جزاء كفركم - أو يجعل الكفر نفس العذاب مجازاً وهو كما ترى ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر - أى هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء - وجوز أن يكون هذا بدلا من (فتنتكم) بتأويل العذاب ، وفيه بعد ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى قابلين لكل ما أعطاهم عز وجل راضين به على معنى إن كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول ، والعموم مأخوذ من شيوع ما وإطلاقه فى معرض المدح وإظهار منته تعالى عليهم، واعتبار الرضا لأن الأخذ قبول عن قصد ، ونصب (آخذين) على الحال من الضمير فى الظرف ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ١٦ ﴾ أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ماينبغى فلذلك استحقوا مااستحقوا من الفوز العظيم، وفسر إحسانهم بقوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ ﴾ الخ على أن الجملة فى محل رفع بدل من قوله تعالى : (كانوا قبل ذلك محسنين) حصل بها تفسيره ، أو أنها جملة لا محل لها من الاعراب مفسرة كسائر الجمل التفسيرية، وأخرج الفريابى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى الآية : (آخذين ما آتاهم ربهم) من الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى كانوا قبل تنزل الفرائض يعملون ، ولا أظن صحة نسبته لذلك الحبر ، ولا يكاد تجعل جملة (كانوا) الخ عليه تفسيراً إذا صح مانقل عنه فى تفسيرها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى *

و - الهجوع - النوم ، وقيده الراغب بقوله : ليلا ، وغيره بالقليل ، و (ما) إما مزيدة - فقليلا -

معمول الفعل صفة لمصدر محذوف أي ـ هجوعا قليلا ـ و(من الليل) صفة، أو لغو متعلق ـ بيهجعون ـ و(من) للابتداء، وجملة (يهجعون) خبر ـ كان ـ أو (قليلا)صفة لظرف محذوف ـ أي زمانا قليلا ـ و(من الليل) صفة على نحو ـ قليل من المال عندي ـ وإما موصولة عائدها محذوف فهي فاعل (قليلا) وهو خبر ـ كان ـ و(من الليل) حال من الموصول مقدم كأنه قيل: كانوا قليلا المقدار الذي يهجعون فيه كائنا ذلك المقدار (من الليل) وإما مصدرية فالمصدر فاعل (قليلا) وهو خبر كان أيضا، و(من الليل) بيان لا متعلق بما بعده لأن معمول المصدر لا يتقدم، أو حال من المصدر، و(من) للابتداء كذا في الكشاف فهما من الكشاف، وذهب بعضهم إلى أن (من) على زيادة ـ ما ـ بمعنى في كما في قوله تعالى: (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) واعترض ابن المنير احتمال مصدريتها بأنه لا يجوز في (من الليل) كونه صفة، أو بيانا ـ للقليل ـ لأنه فيه واقع على الهجوع ولا صلة المصدر لتقدمه، وأجيب بأنه بيان للزمان المبهم؛ وحكى الطيبي أنه إما منصوب على التبيين أو متعلق بفعل يفسره (يهجعون) وجوز أن يكون (ما يهجعون) على ذلك الاحتمال بدلا من اسم كان فكأنه قيل : كان هجوعهم قليلا وهو بعيد، وجوز في (ما)أن تكون نافية، و (قليلا) منصوب ـ بيهجعون ـ والمعنى ـ كانوا لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله ـ ورواه ابن أبي شيبة . وأبو نصر عن مجاهد، ورده الزمخشري بأن (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن لها صدر الكلام وليس فيها التصرف الذي في أخواتها كلا فإنها قد تكون كجزء مما دخلت عليه نحو ـ عوتب بلا جرم ـ ولم . ولن ـ لاختصاصهما بالفعل كالجزء منه، وأنت تعلم أن منع العمل هو مذهب البصريين ،وفي شرح الهادي أن بعض النحاة أجازه مطلقاً، وبعضهم أجازه في الظرف خاصة للتوسع فيه، واستدل عليه بقوله :

* ونحن عن فضلك ما استغنينا * نعم يرد على ذلك أن فيه كما في الانتصاف خللا من حيث المعنى فان طلب قيام الليل غير مستثنى منه جزء للهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود اللهم إلا أن يدعى أن من ذهب إلى ذلك يقول . بأنه كان ثابتاً في الشرع، فقد أخرج ابن أبي شيبة. وابن المنذر عن عطاء أنه قال في الآية: كان ذلك إذ أمروا بقيام الليل كله فكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة (فاقرءوا ما تيسر منه) وقال الضحاك : (كانوا قليلا) في عددهم، وتم الكلام عند (قليلا) ثم ابتدأ (من الليل ما يهجعون) على أن (ما) نافية؛ وفيه ما تقدم مع زيادة تفكيك للكلام، ولعل أظهر الأوجه زيادة (ما) ونصب (قليلا) على الظرفية، و(من الليل) صفة. قيل: وفي الكلام مبالغات لفظ الهجوع بناءاً على أنه القليل من النوم، وقوله تعالى: (قليلا) و(من الليل) لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة (ما) لأنها تؤكد مضمون الجملة فتؤكد القلة وتحققها باعتبار كونها قيداً فيها *

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلا، قال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلا، وعن عبد الله بن رواحة هجعوا قليلا ثم قاموا، وفسر أنس بن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي لا تدل على الاقتصار على ذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ ﴾ أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الاسحار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ولم يتفرغوا فيه للعبادة، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الاحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه *

وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى، وحمل الاستغفار على حقيقته المشهورة هو الظاهر ـ وبه قال الحسن ـ *

أخرج عنه ابن جرير . وغيره أنه قال : صلوا فلما كان السحر استغفروا ، وقيل : المراد طلبهم المغفرة بالصلاة ، وعليه ما أخرج ابن المنذر . وجماعة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : (يستغفرون) يصلون،وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً ولا أراه يصح ، وأخرج أيضا عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن آخر الليل فى التهجد أحب إلى من أوله لأن الله تعالى يقول : (وبالاسحار هم يستغفرون) » وهو محتمل لذلك التفسير والظاهر ﴿ وَفِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله عز وجل وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة كما قال ابن عباس . ومجاهد . وغيرهما ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ الطالب منهم ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩ ﴾ وهو المتعفف الذى يحسبه الجـاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس *

أخرج ابن جرير.وابن حبان.وابن مردويه عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان قيل: فمن المسكين؟ قال: الذى ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه فذلك المحروم » وفسره ابن عباس بالمحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس، وقيل: هو الذى يبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان ، وقال زيد بن أسلم: هو الذى اجتيحت ثمرته ، وقيل: من ماتت ماشيته ، وقيل: من ليس له سهم فى الاسلام ، وقيل: الذى لاينمو له مال ، وقيل: غير ذلك -قال فى البحر: وكل ذلك على سبيل التمثيل ويجمع الأقوال أنه الذى لامال له لحرمان أصابه - وأنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقول -وقال منذر بن سعيد هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل: أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذى كان بالمدينة القدر المعروف اليوم ، وعن ابن عمر أن رجلا سأله عن هذا الحق فقال الزكاة وسوى ذلك حقوق فعمم،والجمهور على الأول *

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ دلائل من أنواع المعادن.والنباتات.والحيوانات،أووجوه دلالات من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص ، فالدليل على الاول مافى الارض من الموجودات والظرفية حقيقية والجمع على ظاهره،وعلى الثانى الدليل نفس الارض،والجمعية باعتبار وجوه الدلالة وأحوالها، والظرفية من ظرفية الصفة فى الموصوف والدلالة على وجود الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته عزوجل ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، وقرأ قتادة -آية- بالافراد ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى فى ذواتكم آيات إذ ليس فى العالم شئ إلا وفى ذات الانسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيآت النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة، وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى،وقيل: أريد بذلك اختلاف الألسنة والصور والالوان والطبائع،ورواه عطاء عن ابن عباس ، وقيل: سبيل الطعام وسبيل الشراب والحق أن لاحصر ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ ﴾ أى ألاتنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة ، وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية ، وقيل: فى الاخير ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أى تقديره وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من النيرين والكواكب والمطالع

والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادي الرزق إلى غيرذلك ، فالكلام على تقدير مضاف أو التجوز بجعل وجود الاسباب فيها كوجود المسبب ، وذهب غير واحد إلى أن السماء السحاب وهي سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر فانه سبب الاقوات وروى تفسيره بذلك مرفوعاً وقرأ ابن محيصن ـأرزاقكم- على الجمع *

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ ﴾ عطف على رزقكم أي والذي توعدونه من خير وشر كما روى عن مجاهد، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك ـ ماتو عدون- الجنة والنار وهو ظاهر في أن النار في السماء وفيه خلاف ، وقال بعضهم : هو الجنة وهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، وقيل : أمر الساعة ، وقيل : الثواب والعقاب فانهما مقدران معينان فيها، وقيل : إنه مستأنف خبره *

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ على أن ضمير (إنه) (لما) وعلى ماتقدم ، فإما له أو للرزق ، أو لله تعالى ، أو للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو للقرآن ، أو للدين في (إن الدين لواقع) أو لليوم المذكور في (أيان يوم الدين) أو لجميع المذكور (أما ما أقوال) ، واستظهر أبو حيان الأخير منها وهو مروى عن ابن جريج أي أن جميع ماذكرناه من أول السورة إلى هنا لحق ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لاشك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لاتشكوا في حقية ذلك وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ، ونصب (مثل) على الحالية من المستكن في (لحق) وهو لايتعرف بالاضافة لتوغله في التنكير ، أو على الوصف لمصدر محذوف أي إنه حق حقاً مثل نطقكم ، وقيل : إنه مبني على الفتح فقال المازني :لتركبه مع (ما) حتى صارا شيئاً واحداً نحو ـ ويحما ـ وأنشدوا لبناء الاسم معها قول الشاعر :

أثور (ما) أصيدكم أم ثورين   أم هذه الجماء ذات القرنين

وقال غيره : لاضافته إلى غير متمكن وهو (ما) إن كانت نكرة موصوفة بمعنى شيء ، أو موصولة بمعنى الذي و (أنكم) الخ خبر مبتدأ محذوف أي هو (أنكم) الخ ، والجملة صفة ، أوصلة ، أوهو أن بما في حيزها إن جعلت (ما) زائدة ، وهو نص الخليل ومحله على البناء الرفع على أنه صفة (لحق) أو خبر ثان ويؤيده قراءة حمزة . والكسائي . وأبي بكر . والحسن . وابن أبي إسحق . والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم (مثل) بالرفع ، وفي البحر أن الكوفيين يجعلون -مثلا- ظرفا فينصبونه على الظرفية ويجيزون زيد مثلك بالنصب، وعليه يجوز أن يكون في قراءة الجمهور منصوبا على الظرفية ـ واستدلالهم، والرد عليهم مذكور في النحو -وفي الآية من تأكيد حقية المذكور مالايخفى ، وأخرج ابن جرير . وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغني أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » وعن الاصمعي أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : ممن الرجل ؟ قلت:من بني أصمع قال : من أين أقبلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال: اتل على فتلوت (والذاريات) فلما بلغت (وفي السماء رزقكم) قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فاذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً ثم قال : وهل غيرهذا ؟ (فقرأت فورب السماء والارض إنه لحق) فصاح وقال: ياسبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين قالها

ثلاثا وخرجت معها نفسه».

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغير طريق الوحى قاله غير واحد ، وفى الكشف فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً بالقسم ومعنى بما فى المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مدمجا فيه صدق المبلغ ، وقضى الوطر من تفصيله مهد لاثبات النبوة وأن هذا الآتى الصادق حقيق بالاتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: (هل أتاك) الخ ، وضمن فيه تسليته عليه الصلاة و السلام بتكذيب قومه فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة هذا إذا لم يجعل قوله تعالى:(وفى موسى) عطفاً على قوله سبحانه.(وفى الأرض آيات) وأما على ذلك التقدير فوجهه أن يكون قصة الخليل . ولوط عليهما السلام معترضة للتسلى بإبعاد مكذبيه وأنه مرحوم منجى مكرم بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم - والترجيح مع الأول انتهى - وسيأتى إن شاء الله تعالى ما يتعلق بقوله سبحانه :(وفى موسى)، و(الضيف) فى الأصل مصدر بمعنى الميل ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد ، قيل : كانوا اثنى عشر ملكا، وقيل : ثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام وسموا ضيفاً لأنهم كانوا فى صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان ، وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لأنها أقوى فى غرض التسلية ﴿ الْمُكْرَمِينَ ٢٤ ﴾ أى عند الله عز وجل كما قال الحسن فهو كقوله تعالى فى الملائكة عليهم السلام : (بل عباد مكرمون) أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجل لهم القرى ورفع مجالسهم كما فى بعض الآثار ، وقرأ عكرمة (المكرمين) بالتشديد ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ ظرف للحديث لأنه صفة فى الأصل، أو للضيف ، أو (المكرمين) إن أريد إكرام إبراهيم لان إكرام الله تعالى إياهم لا يتقيد، أو منصوب بإضمار اذكر ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى نسلم عليك سلاماً ، وأوجب فى البحر حذف الفعل لأن المصدر ساد مسده فهو من المصادر التى يجب حذف أفعالها ، وقال ابن عطية : يتجه أن يعمل فى (سلاماً)قالوا :على أن يجعل فى معنى قولا ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا: تحية وقولا معناه (سلام)ونسب إلى مجاهد وليس بذاك».

﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب والإكرام ، وقيل : (سلام) خبر مبتدأ محذوف أى أمرى (سلام) وقرئا مرفوعين ، وقرئ - سلاماً قال سلما - بكسر السين وإسكان اللام والنصب ، والسلم السلام، وقرأ ابن وثاب والنخعى وابن جبير . وطلحة - سلاماً قال سلم - بالكسر والإسكان والرفع ، وجعله فى البحر على معنى نحن أو أنتم سلم ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٢٥ ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذى هو علم الاسلام ، أو لانهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من الناس ، أولان أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ، و(قوم) خبر مبتدأ محذوف والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف كقولك لمن لقيته :أنا لا أعرفك تريد عرف لى نفسك وصفها ، وذهب بعض المحققين إلى أن الذى يظهر أن التقدير هؤلاء (قوم منكرون) وأنه عليه السلام قاله فى نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك فانه الانسب بحاله

عليه السلام لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا ما ، وطلبه به أن يعرفوه حالهم لعله لايزيل ذلك .
وأيضا لو كان مراده ذلك لكشفوا أحوالهم عند القول المذكور ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة *

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ ﴾ أى ذهب اليهم على خفية من ضيفه ، نقل أبو عبيدة أنه لايقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية ، وقال : يقال روغ اللقمة إذا غمسها فى السمن حتى تروى ، قال ابن المنير : وهو من هذا المعنى لانها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى ، ومن مقلوب الروغ غور الأرض والجرح لخفائه وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، وقال الراغب : الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب ، وراغ فلان إلى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، ويعلم منه أن لاعتبار قيد الخفية وجهاً وهو أمر يقتضيه المقام أيضاً لان من يذهب إلى أهله لتدارك الطعام يذهب كذلك غالباً ، وتشعر الفاء بأنه عليه السلام بادر بالذهاب ولم يمهل وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يبارد بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف، أو يصير منتظراً ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ ﴾ هو ولد البقرة كأنه سمى بذلك لتصور عجلته التى تعدم منه إذا صار ثوراً ﴿ سَمِينٍ ٢٦ ﴾ ممتلىء الجسد بالشحم واللحم يقال : سمن ـ كسمع ـ سمانة بالفتح وسمناً ـ كعنب ـ فهو سامن وسمين ، وحسن السمين خلقة كذا فى القاموس ، وفى البحر يقال: سمن سمناً فهو سمين شذوذاً فى المصدر، واسم الفاعل . والقياس سمن وسمن ، وقالوا : سامن إذا حدث له السمن انتهى ، والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وإيذانا بـكمال سرعة المجئ بالطعام أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به ، وقال بعضهم إنه كان معداً عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يرد عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ماذكر ، والمشهور اليوم أن الذبح للضيف إذا ورد أبلغ فى إكرامه من الاتيان بما هئ من الطعام قبل وروده ، وكان كما روى عن قتادة عامة ماله عليه السلام البقر ولوكان عنده أطيب لحماً منها لاكرمهم به *

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم ،وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل وأن لايوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ ﴾ ،قيل : عرض للأكل فان فى ذلك تأنيساً للضيف ، وقيل : إنكار لعدم تعرضهم للأكل ، وفى بعض الآثار أنهم قالوا: إنا لانأكل إلا ما أدينا ثمنه فقال عليه السلام : إنى لاأبيحه لكم إلا بثمن قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عز وجل عند الفراغ فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلا ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فأضمر فى نفسه منهم خوفاً لما رأى عليه الصلاة والسلام إعراضهم عن طعامه وظن أن ذلك لشر يريدونه فان أكل الضيف أمنة ؛ ودليل على انبساط نفسه وللطعام حرمة وذمام والامتناع منه وحشة موجبة لظن الشر . وعن ابن عباس أنه عليه السلام وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب فخاف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله تعالى، عن يحيى بن شداد مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ، وعلى ماروى عن الحبر أن هذا لمجرد تأمينه عليه السلام ، وقيل: مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم بما أضمر فى نفسه إما بإطلاع الله تعالى إياهم عليه، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به ، أو بظهور أمارته فى وجهه الشريف فاستدلوا بذلك على الباطن ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ وفى سورة الصافات (وبشرناه) أى بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾

هو عند الجمهور إسحق بن سارة وهو الحق للتنصيص على أنه المبشر به فى سورة هود ، والقصة واحدة ، وقال مجاهد: إسمعيل ابن هاجر كما رواه عنه ابن جرير وغيره ولا يكاد يصح ﴿ عَلِيمٍ ٢٨ ﴾ عند بلوغه واستوائه ، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بذكر لانه أسر للنفس وأبهج ، ووصفه بالعلم لانها الصفة التى يختص بها الانسان الكامل لا الصورة الجميلة والقوة ونحوهما، وهذا عند غير الاكثرين من أهل هذا الزمان فان العلم عندهم لاسيما العلم الشرعى رذيلة لاتعادلها رذيلة والجهل فضيلة لاتوازنها فضيلة، وفى صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لايخفى مما يوجب السرور، وعن الحسن (عليم) نبى، ووقعت البشارة بعد التأنيس، وفى ذلك إشارة إلى أن درء المفسدة أهم من جلب المصلحة ، وذكر بعضهم أن علمه عليه السلام بأنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب *

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت فى زاوية تنظر اليهم ، وفى التفسير الكبير إنها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة، وهو إن صح مثله عن نقل وأثر لايأباه الخطاب الآتى لأنه يقتضى الاقبال دون الادبار إذ يكفى لصحته أن يكون بمسمع منها وإن كانت مدبرة، نعم فى الكلام عليه استعارة ضدية ولا قرينة ههنا تصححها ، وقيل : أقبلت بمعنى أخذت كما تقول أخذ يشتمنى ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ فى صيحة من الصرير قاله ابن عباس، وقال قتادة وعكرمة . صرتها رنتها ، وقيل: قولها أوه ، وقيل: ياويلتى ، وقيل : فى شدة ، وقيل : الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أى جمعوا فى وعاء - وإلى هذا ذهب ابن بحر - قال: أى أقبلت فى صرة من نسوة تبادرن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام، والجار والمجرور فى موضع الحال، أو المفعول به إن فسر (أقبلت) بأخذت قيل: إن (فى) عليه زائدة كما فى قوله : * يجرح فى عراقيبها نصلى * والتقدير أخذت صيحة ، وقيل : بل الجار والمجرور فى موضع الخبر لأن الفعل حينئذ من أفعال المقاربة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد: ضربت بيدها على جبهتها وقالت: ياويلتاه ، وقيل: إنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل: إنها لطمته تعجباً وهو فعل النساء إذا تعجبن من شئ ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ ﴾ أى أنا عجوز ﴿ عَقِيمٌ ٢٩ ﴾ عاقر فكيف ألد ، وعقيم فعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول وأصل معنى العقم اليبس ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ ﴾ أى مثل ذلك القول الكريم الذى أخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا، وروى أن جبريل عليه السلام قال لها : انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٣٠ ﴾ فيكون قوله عز وجل حقاً وفعله سبحانه متقناً لا محالة، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدم فى سورة الحجر، وإنما لم يذكرهها هنا اكتفاءاً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءاً بما ذكر - ههنا وفى سورة هود - *

﴿ قَالَ ﴾ أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٣٢ ﴾ يعنون قوم لوط عليه السلام ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة

﴿ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ٣٣ ﴾ أى طين متحجر وهو السجيل؛ وفى تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فان بعض الناس يسمى البرد حجارة ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة من السومة وهى العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها؛ وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا، وقيل: مسومة مرسلة من أسمت الابل فى المرعى، ومنه قوله تعالى: (ومنه شجر فيه تسيمون) ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى فى محل ظهور قدرته سبحانه وعظمته عز وجل، والمراد إنها معلمة فى أول خلقها، وقيل: المعنى إنها فى علم الله تعالى معدة ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤ ﴾ المجاوزين الحد فى الفجور، و ـ أل ـ عند الامام للعهد أى لهؤلاء المسرفين، ووضع الظاهر موضع الضمير ذماً لهم بالاسراف بعد ذمهم بالاجرام، وإشارة إلى علة الحكم، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ إلى آخره حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الاجمال بعد حكاية ماجرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام، والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى موضع آخر كأنه قيل: فقاموا منه وجاءوا لوطاً فجرى بينهم وبينه ماجرى فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا (فأسر بأهلك) الخ ﴿ مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾ أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها *

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أى غير أهل بيت للبيان بقوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦ ﴾ فالكلام بتقدير مضاف، وجوز أن يراد بالبيت نفسه الجماعة مجازاً، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم ـ عن مجاهد لوط وابنتاه، واخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير أنه قال: كانوا ثلاثة عشر، واستدل بالآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوى فان المعنى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد وإلا لم يستقم الكلام، وأنت تعلم أن هذا يدل على أنهما صادقان على الأمر الواحد لاينفك أحدهما عن الآخر كالناطق والانسان إما على الاتحاد فى المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيف، نعم تدل على أنهما صفتا مدح من أوجه عديدة استحقاق الاخراج واختلاف الوصفين وجعل كل مستقلا بأن يجعل سبب النجاة ومافى قوله تعالى: (من كان) أولا، و(غير بيت) ثانياً من الدلالة على المبالغة فان صاحبهما محفوظ (من كان) وأين كان إلى غير ذلك، ومعنى الوجدان منسوباً إليه تعالى العلم على ماقاله الراغب، وذهب بعض الأجلة إلى أنه لا يقال: ماوجدت كذا إلا بعد الفحص والتفتيش، وجعل عليه معنى الآية فأخرج ملائكتنا (من كان فيها من المؤمنين) فما وجد ملائكتنا فيها (غير بيت من المسلمين) أو فى الكلام ضرب آخر من المجاز فلا تغفل *

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أى فى القرى ﴿ ءَايَةً ﴾ علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، قال ابن جريج: هى أحجار كثيرة منضودة، وقيل: تلك الاحجار التى أهلكوا بها، وقيل: ماء منتن قال الشهاب: ثانه بحيرة طبرية، وجوز أبو حيان كون ضمير (فيها) عائداً على الاهلاكة التى أهلكوها فانها من أعاجيب الاهلاك بجعل أعالى القرية أسافل، وإمطار الحجارة، والظاهر هو الأول ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧ ﴾ أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها

ولا يعدونها آية ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ عطف على (وتركنا فيها) بتقدير عامل له أى وجعلنا فى موسى ، والجملة معطوفة على الجملة ، أو هو عطف على (فيها) بتغليب معنى عامل الآية، أو سلوك طريق المشاكلة فى عطفه على الاوجه التى ذكرها النحاة فى نحو ☆ علفتها تبناً وماءاً بارداً ☆ لا يصح تسليط الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه . (وفى موسى) فقول أبى حيان · لاحاجة إلى إضمار (تركنا) لانه قد أمكن العامل فى المجرور تركنا الاول فيه بحث ، وقيل : (فى موسى) خبر لمبتدأ محذوف أى (وفى موسى) آية ، وجوز ابن عطية. وغيره أن يكون معطوفا على قوله تعالى· (وفى الارض وما بينهما) اعتراض لتسليته عليه الصلاة والسلام على مامر، وتعقبه فى البحر بأنه بعيد جداً ينزه القرآن الكريم عن مثله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ ﴾ قيل: بدل من (موسى)، وقيل. هو منصوب بآية ، وقيل · بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا ، وقيل: بتركنا ☆

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ هو ماظهر على يديه من المعجزات الباهرة، والسلطان يطلق على ذلك مع شموله للواحد والمتعدد لأنه فى الأصل مصدر ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ فأعرض عن الايمان بموسى عليه السلام على أن ركنه جانب بدنه وعطفه، والتولى به كناية عن الاعراض ، والباء للتعدية لان معناه ثنى عطفه ، أو للملابسة ، وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة وكونها للسببية غير وجيه ، وقيل: تولى بقوته وسلطانه ، والركن يستعار للقوة ـ كما قال الراغب ـ

وقرئ بركنه بضم الكاف اتباعا للراء ﴿ وَقَالَ سَـٰحِرٌ ﴾ أى هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ٣٩ ﴾ كان اللعين جعل ماظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره فيكون سحراً ، أو بغير اختياره فيكون جنوناً ، وهذا مبنى على زعمه الفاسد وإلا فالسحر ليس من الجن كما بين فى محله ـ فأو ـ للشك ، وقيل : للإبهام ، وقال أبو عبيدة : هى بمعنى الواو لأن اللعين قال الامرين قال : (إن هذا لساحر عليم) وقال : (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) وأنت تعلم أن اللعين يتلون تلون الحرباء فلا ضرورة تدعو إلى جعلها بمعنى الواو ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ ﴾ طرحناهم غير معتدين بهم ﴿ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ فى البحر، والمراد فأغرقناهم فيه ، وفى الكلام من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه ما لا يخفى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٠ ﴾ أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان فالافعال هنا للاتيان بما يقتضى معنى ثلاثيه كأغرب إذا أتى أمراً غريباً ،وقيل : الصيغة للنسب ، أو الاسناد للسبب ـ وهو كما ترى ـ وكون الملام عليه هنا الكفر والطغيان هو الذى يقتضيه حال فرعون وهو مما يختلف باعتبار من وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف اللعين بما وصف به ذو النون عليه السلام ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ على طرز ما تقدم ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ٤١ ﴾ الشديد التى لا تلقح شيئا كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم، وفى لفظ هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة ففعيل بمعنى فاعل من اللازم وكون هذا المعنى لا يصح هنا مكابرة ، وقال بعضهم وهو حسن : سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم على أن هناك استعارة تبعية شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه على المشبه به واشتق منه العقيم ، وفعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول ، وهذه الريح كانت الدبور لما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها النكباء ، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن المسيب أنها الجنوب ، وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها الصبا ، والمعول عليه ماذكرنا أولا ، ولعل الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غير صحيح ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ماتدع شيئا ﴿ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ٤٢ ﴾ الشيء البالي من عظم ، أو نبات ، أو غير ذلك من رم الشيء بلي ، ويقال للبالي : رمام كغراب ، وأرم أيضاً لكن قال الراغب : يختص الرم بالفتات من الخشب والتبن ، والرمة بالكسر تختص بالعظم البالي ، والرمة بالضم بالحبل البالي ، وفسره السدي هنا بالتراب ، وقتادة بالهشيم ، وقطرب بالرماد ، وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذي لا يرم أي لا يصلح كأنه جعل الهمزة في أرم للسلب ، والجملة بعد (إلا) حالية ، والشيء هنا عام مخصوص أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس . أو ديار . أو شجر . أو غير ذلك ، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ٤٣ ﴾ أخرج البيهقي في سننه عن قتادة أنه ثلاثة أيام ــ وإليه ذهب الفراء . وجماعة ــ قال : تفسيره قوله تعالى : (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) واستشكل بأن هذا التمتع مؤخر عن العتو لقوله تعالى : (فعقروها فقال تمتعوا) الخ ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على أن العتو مؤخر ، وأجيب بأن هذا مرتب على تمام القصة كأنه قيل : وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمود آية أو وفي زمان قولنا ذلك لثمود آية ، ثم أخذ في بيان كونه آية فقيل . (فعتوا عن أمر ربهم) أي فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر . فالفاء للتفصيل قال في الكشف . وهو الظاهر من هذا المساق ، وكذلك قوله تعالى : (فتولى بركنه) مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان ، وإن كان هناك لا مانع من الترتب على الارسال وذلك لأنه جيء بالظرف مجيء الفضلة حيث جعل فيه الآية ، والقصة من توليهم إلى هلاكهم انتهى ، وقال الحسن . هذا أي ــ القول لهم تمتعوا حتى حين ــ كان حين بعث اليهم صالح أمروا بالايمان بما جاء به ، والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ــ ثم عتوا بعد ذلك ــ قال في البحر ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عما أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً واختاره الإمام فقال . قال بعض المفسرين . المراد بالحين الأيام الثلاثة التي أمهلوها بعد عقر الناقة وهو ضعيف لأن ترتب فعتوا بالفاء دليل على أن العتو كان بعد القول المذكور ، فالظاهر أنه ما قدر الله تعالى من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل كأنه يقول له . تمتع إلى آخر أجلك فان أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين وإلا فمالك في الآخرة من نصيب انتهى ، وما تقدم أبعد مغزى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي أهلكتهم ، روى أن صالحا عليه السلام وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم . تصبح وجوهكم غداً مصفرة . وبعد غد محمرة . واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ، ولما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصاعقة وهي نار من السماء ، وقيل . صيحة منها فهلكوا ، وقرأ عمر . وعثمان رضي الله تعالى عنهما . والكسائي الصعقة

وهى المرة من الصعق بمعنى الصاعقة أيضا ، أو الصيحة ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٤٤ ﴾ اليها ويعاينونها ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة وأن المراد ينظرون اليها ، وقال مجاهد: (ينظرون) بمعنى ينتظرون أى وهم ينتظرون الأخذ والعذاب فى تلك الايام الثلاثة التى رأوا فيها علاماته وانتظار العذاب أشد من العذاب ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا من قِيَام ﴾ كقوله تعالى: (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وقيل: هو من قولهم: مايقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه ، وروى ذلك عن قتادة فهو معنى مجازى ، أو كناية شاعت حتى التحقت بالحقيقة ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ٤٥ ﴾ بغيرهم كما لم يتمنعوا بأنفسهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أى وأهلكنا قوم ، فان ماقبله يدل عليه ، أو واذكر ، وقيل : عطف على الضمير فى (فأخذتهم) ، وقيل : فى (فنبذناهم) لأن معنى كل فأهلكناهم - وهو كما ترى - وجوز أن يكون عطفاً على محل (وفى عاد) أو (وفى ثمود) وأيد بقراءة عبدالله . وأبى عمرو . وحمزة . والكسائى . وقوم بالجر ، وقرأ عبد الوارث . ومحبوب . والاصمعى عن أبى عمرو . وأبو السمال . وابن مقسم . وقوم بالرفع والظاهر أنه على الابتداء ، والخبر محذوف أى أهلكناهم ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ٤٦ ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿ وَالسَّمَاءَ ﴾ أى وبنينا السماء ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أى بقوة قاله ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ، ومثله -الآد- وليس جمع (يد) وجوزه الامام وإن صحت التورية به ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ أى لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، فالجملة تذييل إثباتا لسعة قدرته عز وجل كل شئ فضلا عن السماء ، وفيه رمز إلى التعريض الذى فى قوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) ، وعن الحسن (لموسعون) الرزق بالمطر وكأنه أخذه من أن المساق مساق الامتنان بذلك على العباد لا لإظهار القدرة فكأنه أشير فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) إلى ماتقدم من قوله سبحانه : (وفى السماء رزقكم) على بعض الأقوال فناسب أن يتمم بقوله تعالى :(وإنا لموسعون) مبالغة فى المن ولا يحتاج أن يفسر الأيد بالانعام على هذا القول لأنه يتم المقصود دونه ، واليد بمعنى النعمة لا الإنعام ، وقيل : أى لموسعوها بحيث أن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة اليها كحلقة فى فلاة ، وقيل : أى لجاعلون بينها وبين الأرض سعة ، والمراد السعة المكانية ، وفيه على القولين تتميم أيضا ﴿ وَالأَرْضَ ﴾ أى وفرشنا الارض ﴿ فَرَشْنَاهَا ﴾ أى مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها ولا ينافى ذلك شبهها للكرة على ما يزعمه فلاسفة العصر ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ٤٨ ﴾ أى نحن ، وقرأ أبو السمال . ومجاهد . وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر لهما ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى من كل جنس من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين ذكراً وأنثى - قاله ابن زيد . وغيره - وقال مجاهد : هذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات كالليل . والنهار . والشقوة . والسعادة . والهدى . والضلال . والسماء . والأرض . والسواد . والبياض . والصحة . والمرض . إلى غير ذلك ، ورجحه الطبرى بأنه أدل على القدرة ، وقيل : أريد بالجنس

المنطقى ، وأقل مايكون تحته نوعان فخلق سبحانه من الجوهر مثلا المادى والمجرد ، ومن المادى النامى والجامد ، ومن النامى المدرك والنبات ، ومن المدرك الصامت والناطق وهو كما ترى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٤٩ ﴾ أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا أنه عزوجل الرب القادر الذى لا يعجزه شئ فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ماسواه، وقيل :خلقنا ذلك كى تتذكروا فتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات سبحانه لا يقبل التعدد والانقسام، وقيل: المراد التذكر بجميع ماذكر لامر الحشر والنشر لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الاموات يوم القيامة وله وجه، وقرأ أبى "تتذكرون بتاءين وتخفيف الذال ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ تفريع على قوله سبحانه : (لعلكم تذكرون) وهو تمثيل للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل ، والمعنى قل يامحمد : (ففروا إلى الله) لمكان ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من عقابه تعالى المعد لمن لم يفر إليه سبحانه ولم يوحده ﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٠ ﴾ بين كونه منذراً من الله سبحانه بالمعجزات ، أو (مبين) ما يجب أن يحذر عنه ◆

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ عطف على الأمر ، وهو نهى عن الإشراك صريحاً على نحو وحدوه ولا تشركوا ، ومن الأذكار المأثورة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ وكرر قوله تعالى :

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥١ ﴾ لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهى والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة فى النصيحة ، وقيل : إن المراد بقوله تعالى : (ففروا إلى الله) الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة ، وذكر (ولا تجعلوا) الخ ، إفراداً لأعظم مايجب أن يفر منه ، و(إنى لكم) الخ ، الأول مرتب على ترك الايمان والطاعة ، والثانى على الإشراك فهما متغايران لتغاير ماترتب كل منهما عليه ووقع تعليلا له ولا يخلو عن كدر ، وقال الزمخشرى : فى الآية : (فروا إلى)طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ووحدوا ولا تشركوا به ، وكرر (إنى لكم) الخ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك ليعلم أن الايمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الايمان وأنه لا يفوز عند الله تعالى إلا الجامع بينهما انتهى ، وفيه أنه لادلالة فى الآية على ذلك بوجه ثم تفسير الفرار إلى الله بما فسره أيضاً لينطبق على العمل وحده غير مسلم على أنه لو سلم الانذار بترك العمل فمن أين يلزم عدم النفع ، وأهل السنة لاينازعون فى وقوع الانذار بارتكاب المعصية ، فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة أنه تعالى أمر بها أولا وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له فى الشرع وهو العذاب دون خلود ، ونهى جل شأنه ثانياً أن يشرك بعبادته سبحانه غيره وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود ، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين وتكون الآية فى تقديم الأمر على النهى فيها نظير قوله تعالى : (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ، وقوله سبحانه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وأين هذا مما ذكره الزمخشرى عامله الله تعالى بعدله ◆

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر مثل ذلك تقرير وتوكيد على مامر غير مرة، ومن فصل الخطاب لأنه لما أراد سبحانه أن يستأنف قصة قولهم المختلف فى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تقدمت عموماً أوخصوصاً فى قوله تعالى: (إنكم لفى قول مختلف) وكان قد توسط ماتوسط قال سبحانه : الأمر كذلك أى مثل مايذكر و يأتيك

خبره إشارة إلى الكلام الذى يتلوه أعنى قوله عز وجل : ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ إلى آخره فهو تفسير ماأجمل وهو مراد من قال: الإشارة إلى تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه وحاشاه ساحراً ومجنوناً ، ويعلم مماذكر أن كذلك خبر مبتدأ محذوف ولا يجوز نصبه بأتى على أنه صفة لمصدره ، والإشارة إلى الإتيان أى (ماأتى الذين من قبلهم) من رسول إتياناً مثل إتيانهم (إلاقالوا) إلخ لأن مابعد (ما) النافية لايعمل فيما قبلها على المشهور ، ولا يأتى مقدراً على شريطة التفسير لأن مالايعمل لا يفسر عاملا فى مثل ذلك كما صرح به النحاة ، وجعله معمولا لقالوا، والإشارة للقول أى إلاقالوا ساحر أو مجنون قولا مثل ذلك القول لايجوز أيضاً على تعسفه لمكان (ما) وضمير قبلهم لقريش أى ماأتى الذين من قبل قريش ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ أى رسول من رسل الله تعالى ﴿ إِلَّا قَالُواْ ﴾ فى حقه ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٥٢ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو ساحر، و ـ أو ـ قيل : من الحكاية أى (إلا قالوا ساحر)، أو (قالوا مجنون) وهى لمنع الخلو وليست من المحكى ليكون مقول كل مجموع (ساحر أو مجنون) وفى البحر هى للتفصيل أى قال بعض: ساحر؛ وقال بعض: مجنون؛ وقال بعض: ساحر ومجنون فجمع القائلون فى الضمير ودلت ـ أو ـ على التفصيل انتهى فلا تغفل ¤

واستشكلت الآية بأنها تدل على أنه مامن رسول إلا كذب مع أن الرسل المقررين شريعة من قبلهم كيوشع عليه السلام لم يكذبوا وكذا آدم عليه السلام أرسل ولم يكذب . وأجاب الامام بقوله : لانسلم أن المقرر رسول بل هو نبى على دين رسول ومن كذب رسوله فهو يكذبه أيضاً وتعقب بأن الأخبار وكذا الآيات دالة على أن المقررين رسل، وأيضا يبقى الاستشكال بآدم عليه السلام وقد اعترف هو بأنه أرسل ولم يكذب وأجاب بعض عن الاستشكال بالمقررين بأن الآية إنما تدل على أن الرسل الذين أتوا من قبلهم كلهم قد قيل فى حقهم ما قيل، ولا يدخل فى عموم ذلك المقررون لان المتبادر من إتيان الرسول قوما مجيئه إياهم مع عدم تبليغ غيره إياهم ماأتى به من قبله وذلك لم يحصل للمقرر شرع من قبله كما لايخفى ، وعن الاستشكال بآدم عليه السلام بأن المراد ـ ماأتى الذين من قبلهم من الامم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلا قالوا ـ الخ ، وآدم عليه السلام لم يأت أمة كذلك إذ لم يكن حين أرسل إلا زوجته حواء ، ولعله أولى مما قيل : إن المراد من رسول من بنى آدم فلا يدخل هو عليه السلام فى ذلك، واستشكلت أيضا بأن (إلاقالوا) يدل على أنهم كلهم كذبوا مع أنه ما من رسول إلا آمن به قوم، وأجاب الامام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط لأنه الأوفق بغرض التسلية ،وأخذ منه بعضهم الجواب عن الاستشكال السابق فقال :الحكم باعتبار الغالب لاأن كل أمة من الامم أتاها رسول فكذبته ليرد آدم والمقررون حيث لم يكذبوا ـ وفيه مافيه ـ وحمل بعضهم الذين من قبلهم على الكفار ودفع به الاستشكالين ـ وفيه مالايخفى ـ فتأمل جميع ذلك ولاتظن انحصار الجواب فيما سمعت فأمعن النظر والله تعالى الهادى لأحسن المسالك ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ تعجيب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة أى كأن الاولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً ، وقيل : إنكار للتواصي أى ماتواصوا به ¤

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ ﴾ إضراب عن أن التواصى جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشار كتهم فى الطغيان الحامل عليه *

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة ولم تأل جهداً فى البيان فأبوا إلا إباءاً وعناداً ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُوم ٥٤ ﴾ على التولى بعد مابذلت المجهود وجاوزت فى الابلوغ كل حد معهود *

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ آدم على فعل التذكير والموعظة ولاتدع ذلك فالأمر بالتذكير للدوام عليه والفعل منزل منزلة اللازم ، وجوز أن يكون المفعول محذوفا أى فذكرهم وحذف لظهور الامر *

﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ ﴾ أى الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو المؤمنين بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين ، وفى البحر يدل ظاهر الآية على الموادعة وهى منسوخة بآية السيف ، وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله تعالى : (فتول عنهم) الخ ، قال: أمره الله تعالى أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمداً ﷺ ثم قال سبحانه : (وذكر) الخ فنسختها *

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الشعب . والضياء فى المختارة . وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت (فتول عنهم فما أنت بملوم) لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولى عنا فنزلت (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت أنفسنا ، وعن قتادة أنهم ظنوا أن الوحى قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى (وذكر) الخ *

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ استئناف مؤكد للامر مقرر لمضمون تعليله فان خلقهم لاذكر سبحانه وتعالى بمايدعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ، ولعل قديم الجن فى الذكر لتقدم خلقهم على خلق الانس فى الوجود ، والظاهر أن المراد من يقابلون بهم وبالملائكة عليهم السلام ولم يذكر هؤلاء قيل : لأن الامر فيهم مسلم ، أو لأن الآية سيقت لبيان صنيع المكذبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها ؛ وهذا الترك مما لا يكون فيهم بل هم عباد مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل ، وقيل : لانه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس مبعوثاً اليهم فليس ذكرهم فى هذا الحكم بمايدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ، وأنت تعلم أن الاصح عموم البعثة فالاولى ماقيل بدله لاستغنائهم عن التذكير والموعظة ، وقيل : المراد بالجن مايتناولهم لانه من الاستتار وهم مستترون عن الانس ، وقيل : لايصح ذكرهم فى حيز الخلق لانهم كالأرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخلق، وقد أشير اليهما بقوله تعالى : (له الخلق والامر) ورد بقوله سبحانه : (خالق كل شئ وله الخلق والامر) ليس كما ظن والعبادة غاية التذلل ، والظاهر أن المراد بها ماكانت بالاختيار دون التى بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات وهى الدلالة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خالق فاعل حكيم ، ويعبر عنها بالسجود كما فى قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) وأل فى الجن والانس على المشهور للاستغراق ، واللام قيل : للغاية والعبادة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والانس لاجلها أى لارادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك لاستلزام

الإرادة الالهية للمراد كما بين فى الاصول مع أن التخلف محقق بالمشاهدة، وأيضا ظاهر قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) يدل على إرادة المعاصى من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينافى إرادة العبادة لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولا وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد جعل خلقهم مغياً بها مبالغة بتشبيه المعد له الشئ بالغاية ومثله شائع فى العرف، ألا تراهم يقولون للقوى جسمه: هو مخلوق للمصارعة، وللبقر: هى مخلوقة للحرث *

وفى الكشف أن أفعاله تعالى تنساق إلى الغايات الكمالية واللام فيها موضوعها ذلك، وأما الارادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أن الباعث مطلوب فى نفسه وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل فانهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا اليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم، وتعوق بعضهم عن الوصول اليها لا يمنع كون الغاية غاية، وهذا معنى مكشوف انتهى. فتأمل، وقيل: المراد بالعبادة التذلل والخضوع بالتسخير، وظاهر أن الكل عابدون إياه تعالى بذلك المعنى لا فرق بين مؤمن، وكافر، وبر، وفاجر، ونحوه ماقيل: المعنى ماخلقت الجن والانس إلا ليذلوا لقضائى، وقيل: المعنى ماخلقتهم إلا ليكونوا عباداً لى، ويراد بالعبد العبد بالايجاد وعموم الوصف عليه ظاهر لقوله تعالى: (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) لكن قيل عليه: إن عبد بمعنى صار عبداً ليس من اللغة فى شىء، وقيل: العبادة بمعنى التوحيد بناءاً على ما روى عن ابن عباس أن كل عبادة فى القرآن فهو توحيد فالكل يوحدونه تعالى فى الآخرة أما توحيد المؤمن فى الدنيا هناك فظاهر، وأما توحيد المشرك فيدل عليه قوله تعالى: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وعليه قول من قال: لا يدخل النار كافر، أو المراد كما قال الكلبي: إن المؤمن يوحده فى الشدة والرخاء والكافر يوحده سبحانه فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، كما قال عزوجل: (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ولا يخفى بعد ذلك عن الظاهر والسياق، ونقل عن على كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما خلقتهم إلا لآمرهم وأدعوهم للعبادة فهو كقوله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) فذكر العبادة المسببة شرعاً عن الأمر أو اللازمة له، وأريد سببها أو ملزومها فهو مجاز مرسل، وأنت تعلم أن أمر كل من أفراد الجن وكل من أفراد الانس غير متحقق لاسيما إذا كان غير المكلفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمان التكليف داخلين فى العموم، وقال مجاهد: إن معنى (ليعبدون) ليعرفون وهو مجاز مرسل أيضاً من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما فى الارشاد، ولعل السر فيه التنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة قيل: وهو حسن لأنهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يعرف وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى، وقد جاء «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق فى كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم فلا بد من القول السابق فى توجيه التعليل ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغانى فى منتهى المدارك، وذكر غيره كالشيخ الأكبر فى الباب المائة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر. وغيرهما: ومن

يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلا لكن يقول : إنه ثابت كشفاً ، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب المذكور ، والتصحيح الكشفى شنشنة لهم ، ومع ذلك فيه إشكال معنى إلا أنه أجيب عنه ثلاث أجوبة ستأتى إن شاء الله تعالى ، وقيل : أل فى (الجن والانس) للعهد ، والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى : (ولقد ذرأنا) الآية أى بناءاً على أن اللام فيها ليست للعاقبة ، ونسب هذا القول لزيد بن أسلم . وسفيان ، وأيد بقوله تعالى قبل : (فان الذكرى تنفع المؤمنين) وأيده فى البحر برواية ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين » ورواها بعضهم قراءة لابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ومن الناس من جعلها للجنس ، وقال . يكفى فى ثبوت الحكم له ثبوته لبعض أفراده وهو هنا المؤمنون الطائعون وهو فى المآل متحد مع سابقه ، ولا إشكال على ذلك فى جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقة وكذا فى جعلها للغرض عند من يجوز تعليل أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتى وعدم الاستكمال بالغير ـ كما ذهب اليه كثير من السلف ، والمحدثين ـ وقد سمعت أن منهم من يقسم الارادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصى وغيرها ، وعليه يجوز أن يبقى (الجن والإنس) على شمولهما للعاصين ، ويقال : إن العبادة مرادة منهم أيضاً لكن بالارادة الشرعية إلا أنه لايتم إلا إذا كانت هذه الارادة لاتستلزم وقوع المراد كالارادة التفويضية القائل بها المعتزلة *

هذا وإذا أحطت خبراً بالأقوال فى تفسير هذه الآية هان عليك دفع مايتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) على تقدير كون الاشارة إلى الاختلاف بالتزام بعض هاتيك الأقوال فيها ، ودفعه بعضهم بكون اللام فى تلك الآية للعاقبة والذى ينساق إلى الذهن أن الحصر إضافى أى خلقتهم للعبادة دون ضدها أو دون طلب الرزق والاطعام على مايشير اليه كلام بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ ﴾ وهو لبيان أن شأنه تعالى شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك ملاك العبيد نفى عز وجل أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه : ماأريد أن أستعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ، وذكر الامام فيه وجهين : الأول أن يكون لدفع توهم الحاجة من خلقهم للعبادة ، والثانى أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين لها ، وبين هذا بأن الفعل فى العرف لا بد له من منفعة لكن العبيد على قسمين : قسم يتخذون لاظهار العظمة بالمثول بين أيادى ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك ، وقسم يتخذون للانتفاع بهم فى تحصيل الأرزاق أو لاصلاحها ، فكأنه قال سبحانه : إنى خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة فليتفكروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق ، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ ومن يقرب الطعام ؟ وليسوا كذلك (فما أريد أن يطعمون) فاذا هم عبيد من القسم الأول ، فينبغى أن لايتركوا التعظيم ، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لى لمكان قوله سبحانه : (وما أريد أن يطعمون) واليه ذهب الامام ، وذكر فى الآية لطائف : الاولى أنه سبحانه كرر نفى الارادتين لان السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب حيث كان له مال وافر لكنه يطلب قضاء

حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه، فنفى الارادة الاولى لا يستلزم نفى الارادة الثانية فكرر النهى على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك ، الثانية أن ترتيب النفيين كما تضمنه النظم الجليل من باب الترقى فى بيان غناه عز وجل كأنه قال سبحانه : لا أطلب منهم رزقاً ولا ماهو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدى السيد فان ذلك أمر كثيراً ما يطلب من العبيد إذا كان التكسب لا يطلب منهم ، الثالثة أنه سبحانه قال: ما أريد منهم من رزق دون ما أريد منهم أن يرزقون لان التكسب لطلب العين لا الفعل ، وقال سبحانه : (ما أريد أن يطعمون) دون ما أريد من طعام لأن ذلك للإشارة الى الاستغناء عما يفعله العبد الغير المأمور بالتكسب كعبد وافر المال والحاجة اليه للفعل نفسه ، الرابعة أنه جل وعلا خص الاطعام بالذكر لأن أدنى درجات الاستعانة أن يستعين السيد بعبده فى تهيئة أمر الطعام ونفى الأدنى يتبعه نفى الأعلى بطريق الأولى فكأنه قيل : ما أريد منهم من عين ولا عمل ، الخامسة أن (ما) لنفى الحال إلا أن المراد به الدنيا وتعرض له دون نفى الاستقبال لأن من المعلوم البين أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو إطعام انتهى ، فتأمله *

ويفهم من ظاهر كلام الزمخشرى أن المعنى ما أريد منهم من رزق لى ولهم ، وفى البحر ما أريد منهم من رزق أى أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم (وما أريد أن يطعمون) أى أن يطعموا خلقى فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس انتهى ، ونحوه ما قيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقى ولا أريد أن يطعموه ، وأسند الإطعام إلى نفسه سبحانه لأن الخلق كلهم عيال الله تعالى . ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه ، وفى الحديث « ياعبدى مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطعمنى » فانه كما يدل عليه آخره على معنى مرض عبدى فلم تعده وجاع فلم تطعمه ، وقيل : الآية مقدرة بقل فتكون بمعنى قوله سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجراً) والغيبة فيها رعاية للحكاية إذ فى مثل ذلك يجوز الأمران الغيبة والخطاب ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون) ، وقيل : المراد قل لهم وفى حقهم فتلائمه الغيبة فى (منهم) و (يطعمون) ولا ينافى ذلك قراءة - أنى أنا الرزاق - فيما بعد لانه حينئذ تعليل للأمر بالقول ، أو الائتمار لا لعدم الارادة ، نعم لاشك فى أنه قول بعيد جداً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ الذى يرزق كل مفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالا ، أو اشتراكا ويفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أى القدرة ﴿ ٱلْمَتِينُ ٥٨ ﴾ شديد القوة ، والجملة تعليل لعدم الارادة قال الامام : كونه تعالى هو الرزاق ناظر إلى عدم طلب الرزق لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجا ، وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: (وما أريد أن يطعمون) لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه قيل : ما أريد منهم من رزق لأنى أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأنى قوى متين ، وكان الظاهر - أنى أنا الرزاق - كما جاء فى قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة ، والتعبير بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية فيكون فى ذلك إشعار بعلة الحكم ولتخرج الآية مخرج المثل كما قيل ذلك فى قوله تعالى : (إن الباطل كان زهوقاً) والتعبير به على القول بتقدير قل فيما تقدم هو الظاهر ، وتحتاج القراءة الاخرى إلى ما ذكرناه آنفا ، وآثر سبحانه ذو القوة على القوى قيل : لأن فى (ذو) كما قال ابن حجر الهيتمى وغيره تعظيم ما أضيفت اليه ، والموصوف بها والمقام يقتضيه ولذا جئ

بالمتين بعد ولم يكتف به عن الوصف بالقوة ؛ وقال الامام : لما كان المقصود تقرير ماتقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جئ بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفى فى تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لامبالغة فيه لكفايته فى تقرير عدم الاستعانة فان من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة (ما) زيد الوصف بالمتين وهو الذى له ثبات لا يتزلزل ، ثم قال: إن القوى أبلغ من ذى القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه فى قوله تعالى:(ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) وفى قوله تعالى : (إن الله هو الرزاق) الخ لما اقتضى المقام ذلك ، وقد أطال الكلام فى هذا المقام وما أظنه يصفو عن كدر ، وقرأ ابن محيصن ـ الرازق ـ بزنة الفاعل ، وقرأ الأعمش . وابن وثاب ـ المتين ـ بالجر ، وخرج على أنه صفة القوة ، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار أو لكونه على زنة المصادر التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ، أو لاجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول ، وأجاز أبو الفتح أن يكون صفة ـ لذو ـ وجر على الجوار ـ كقولهم هذا جحر ضب خرب ـ وضعف

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أى إذا ثبت أن الله تعالى ماخلق الجن والانس إلا ليعبدوه وأنه سبحانه مايريد منهم من رزق إلى آخر ماتقدم فان للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ماخلقوا له من العبادة وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام وهم أهل مكة وأضرابهم من كفار العرب ﴿ ذَنُوباً ﴾ أى نصيبا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ ﴾ أى نصيب ﴿ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ أى نظرائهم من الامم السالفة ، وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماءاً أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهرى : ولا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وهى تذكر وتؤنث وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقاً شراً كان كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيراً كما فى العطاء فى قول علقمة بن عبدة التميمى يمدح الحرث بن أبى شمر الغسانى وكان أسر أخاه شأساً يوم عين أباغ :

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك (ذنوب)

يروى أن الحرث لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة (١) ومن استعمالها فى النصيب قول الآخر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها(ذنوب)

وهو استعمال شائع ، وفى الكشاف هذا تمثيل أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال الراجز :

إنا إذا نازلنا غريب له (ذنوب) ولنا (ذنوب) وإن أبيتم فلنا القليب

﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ٥٩ ﴾ أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى الاتيان به يقال استعجله أى حثه على العجلة وطلبها منه ، ويقال: استعجلت كذا أن طلبت وقوعه بالعجلة ، ومنه قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وهو على مافى الارشاد جواب لقولهم : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(١) « شأس » هو جد علقمة بن عبيدة مدح بهذه القصيدة الحرث بن أبى شمر الغسانى لما كان عنده أسيراً فأمر باطلاقه وجميع أسرى بنى تميم و« الخابط » الطالب ، ومعنى البيت أنت الذى أنعمت على كل حى بنعمة واستحق نداك ذنوباً اه إدارة الطباعة

أى فويل لهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلة الحكم، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيما كما أن الفاء التى قبلها لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك، و (مِنْ) فى قوله سبحانه: ﴿ من يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ٦٠ ﴾ للتعليل؛ والعائد على الموصول محذوف أى يوعدونه أو يوعدون به على قول، والمراد بذلك اليوم قيل: يوم بدر، ورجح بأنه الأوفق لما قبله من حيث أنه ذنوب من العذاب الدنيوى، وقيل: يوم القيامة، ورجح بأنه الأنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية، والله تعالى أعلم.

ومما قاله بعض أهل الاشارة فى بعض الآيات: (والذاريات ذرواً) إشارة إلى الرياح التى تحمل أنين المشتاقين المتعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة، ثم تأتى بنسيم نفحات الحق إلى مشام المحبين فيجدون راحة مما من غلبات اللوعة (فالحاملات وقراً) إشارة إلى سحائب ألطاف الألوهية تحمل أمطار مراحم الربوبية فتمطر على قلوب الصديقين (فالجاريات يسراً) إشارة إلى سفن أفئدة المحبين تجرى برياح العناية فى بحر التوحيد على أيسر حال (فالمقسمات أمراً) إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القدس بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة، وإن شئت جعلت الكل إشارة إلى أنواع رياح العناية فمنها مايطير بالقلوب فى جو الغيوب، وقد قال العاشق المجازى:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ... فقد كاد رياها يطير بلبه
وإيا كما ذاك النسيم فانه ... متى هب كان الوجد أيسر خطبه

ومنها (الحاملات وقراً) دواء قلوب العاشقين كما قيل:

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ماتنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

ومنها (الجاريات) من مهاب حضرات القدس إلى أفئدة أهل الانس بسهولة لتنعش قلوبهم، ومنها (المقسمات) ما جاءت به مما عبق بها من آثار الحضرة الإلهية على نفوس المستعدين حسب استعداداتهم وإن شئت قلت غير ذلك فالباب واسع (والسماء ذات الحبك) إشارة إلى سماء القلب فانها ذات طرائق إلى الله عز وجل (إن المتقين فى جنات وعيون) إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة (وبالأسحار هم يستغفرون) يطلبون غفر أى ستر وجودهم بوجود محبوبهم، أو يطلبون غفران ذنب رؤية عبادتهم من أول الليل إلى السحر (ومن كل شىء خلقنا زوجين) إشارة إلى أن جميع ما يرى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدة حقيقية بل هو مركب ولا أقل من كونه مركباً من الامكان، وشىء آخر فليس الواحد الحقيقى إلا الله تعالى الذى حقيقته سبحانه إنيته (ففروا الى الله) بترك ما سواه عز وجل (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى ليعرفون، وهو عندهم إشارة إلى ما صححوه كشفاً من روايته صلى الله تعالى عليه وسلم عن ربه سبحانه أنه قال: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وفى كتاب الأنوار السنية للسيد نور الدين السمهودى بلفظ «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت هذا الخلق ليعرفونى فبى عرفونى» وفى المقاصد الحسنة للسخاوى بلفظ «كنت كنزاً لا أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بى

فعرفونى »إلى غير ذلك،وهو مشكل لأن الخفاء أمر نسبي فلا بد فيه من مخفى ومخفى عنه فحيث لم يكن خلق لم يكن مخفى عنه فلا يتحقق الخفاء،وأجيب أولا بأن الخفاء عن الأعيان الثابتة لأن الأشياء فى ثبوتها لا إدراك لها وجودياً فكان الله سبحانه مخفياً عنها غير معروف لها معرفة وجودية ـ فأحب أن يعرف معرفة حادثة من موجود حادث ـ فخلق الخلق لأن معرفتهم الوجودية فرع وجودهم فتعرف سبحانه إليهم بأنواع التجليات على حسب تفاوت الاستعدادات فعرفوا أنفسهم بالتجليات فعرفوا الله تعالى من ذلك فبه سبحانه عرفوه،وثانيا أن المراد بالخفاء لازمه وهو عدم معرفة أحد به جل وعلا ، ويؤيده ما فى لفظ السخاوى من قوله . لا أعرف بدل مخفياً ، وثالثاً بأن مخفيا بمعنى ظاهراً من أخفاه أى أظهره على أن الهمزة للازالة أى أزال خفاءه،وترتيب قوله سبحانه: « فأحببت أن أعرف » الخ عليه باعتبار أن الظهور متى كان قوياً أوجب الجهالة بحال الظاهر فخلق سبحانه الخلق ليكونوا كالحجاب فيتمكن معه من المعرفة ، ألا يرى أن الشمس لشدة ظهورها لا تستطيع أكثر الابصار الوقوف على حالها إلا بواسطة وضع بعض الحجب بينها وبينها وهو كما ترى لا يخلو عن بحث ، وأما إطلاق الكنز عليه عز وجل فقد ورد ، روى الديلمى فى مسنده عن أنس مرفوعا كنز المؤمن ربه أى فان منه سبحانه كل ما يناله من أمر نفيس فى الدارين ، والشيخ محي الدين قدس سره ذكر فى معنى ـ الكنز ـ غير ذلك فقال فى الباب الثلثمائة والثمانية والخمسين من فتوحاته : لو لم يكن فى العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعنى العلم الحادث فى قوله : « كنت كنزاً » الخ فجعل نفسه كنزاً ، والكنز لا يكون إلا مكتنزاً فى شئ فلم يكن كنز الحق نفسه إلا فى صورة الانسان الكامل فى شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما ألبس الحق الانسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الانسان الكامل بوجوده وعلم أنه سبحانه كان مكنوزاً فيه فى شيئية ثبوته وهو لا يشعر به انتهى ، وهو منطق الطير الذى لا نعرفه نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى بمنه وكرمه ☆

سـورة والذاريات

مكية في قول الجميع، وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾.

[٢] ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾.

[٣] ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾.

[٤] ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾.

[٥] ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾.

[٦] ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا عبد الله بن ناجية، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا مكي بن إبراهيم، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: إني مررت برجل[١] يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه؛ فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلِده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب» وأبلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً[١] طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم. وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل علياً رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ [قال]: ويلك سَلْ تَفَقُّهاً ولا تسأل تَعَنُّتاً ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ الرياح ﴿فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً﴾ السحاب ﴿فَالْجَارِيَات يُسْراً﴾ السفن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ الملائكة. وروى الحرث عن علي رضي الله عنه ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾

---

(١) هو صبيغ ـ كأمير ـ بن عسل ـ بكسر العين ـ كان يعنت الناس بالغوامض والسؤلات من متشابه القرآن فنفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه، وكتب إلى واليها ألا يؤويه، ونهى عن مجالسته (التاج).

قال: الرياح ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً﴾ قال: السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ قال: السفن موقرة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ قال: الملائكة تأتي بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت. وقال الفراء: وقيل تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث[١]. ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً وتَذْرِية ذَرْياً. ثم قيل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ وما بعده أقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفاً. وقيل: المعنى وربَ الذارياتِ، والجواب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾ لا كذب فيه؛ ومعنى ﴿لَصَادِقٌ﴾ لصدق؛ وقع الاسم موقع المصدر. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني الجزاء نازل[٢] بكم. ثم ابتدأ قسماً آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ وقيل: إن الذاريات النساء الولودات لأن في ذرايتهنّ ذرو الخلق؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات؛ وأقسم بهنّ لما في ترائبهنّ من خيرة عباده الصالحين. وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين: **أحدهما** ـ لأنهن أوعية دون الرجال، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر. **الثاني** ـ أن الذّرو فيهنّ أطول زماناً، وهنّ بالمباشرة أقرب عهداً. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً﴾ السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل. والوِقْر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، يقال: جاء يحمل وِقْره وقد أوقر بعيرَه. وأكثر ما يستعمل الوِقر في حمل البغل والحمار، والوَسْق في حمل البعير. وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة كثر حَمْلُهَا؛ يقال: نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس، لأن الفعل للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر بكسر القاف على [قياس][٣] قولك امرأة حامل، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ، وقد روي في قول لبِيد يصف نخيلاً:

عَصَبٌ كَوَارِعُ في خليج مُحَلَّمٍ حَمَلَتْ فمنها موقَرٌ مَكْمُومُ

---

(١) في ل، ن: «الخوارق». (٢) في ز، ل، ن: «النازل». (٣) الزيادة من كتب اللغة.

والجمع مواقِر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنُه تَوْقر وَقْراً أي صَمَّت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في ﴿الأنعام﴾[1] القول فيه. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ السفن تجري بالرياح يسراً إلى حيث سيرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان: **أحدهما** ـ إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع. **والثاني** ـ هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتها ... مَشْيُ السَّحَابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

[٧] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾.

[٨] ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

[٩] ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ابن عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدوي والثعلبي والماوردي وغيرهم. وفي ﴿الْحُبُكِ﴾ أقوال سبعة **الأول** ـ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع: ذات الخَلق الحسن المستوي. وقاله عكرمة؛ قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أي أجاد نسجه. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته. **والثاني** ـ ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير، وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم وهو الثالث. **الرابع** ـ قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك. ونحوه قول الفراء؛ قال: الحُبُك تكسُّر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم

(١) راجع ٦/٤٠٤.

إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك. وفي حديث الدجّال: إنّ شعره حُبُك. قال زهير:

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه ريحٌ خَرِيقٌ لِضاحِي مائِه حُبُكُ[1]

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها. **الخامس** - ذات الشدة، قاله ابن زيد، وقرأ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾[2]. والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس:

قد غَدَا يَحْمِلُني في أنْفِهِ لاَحِقُ الإطْلَين[3] مَحبُوكٌ مُمَرّ

وقال آخر:

مَرِجَ الدِّينَ فأعددتُ لَهُ مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوك الْكَتَدْ[4]

وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي تشدّ الإزار وتحكمه. **السادس** - ذات الصفّاقة؛ قاله خَصِيف، ومنه ثوب صفِيق ووجه صفيق بين الصفاقة. **السابع** - أن المراد بالطرق المجَرّة التي في السماء؛ سميت بذلك لأنها كأثر المَجَرّ. و ﴿الْحُبُكُ﴾ جمع حِباك، قال الراجز:

كأنّما جَلَّلها الْحُوَّاكُ طنفسة في وَشْيها حِبَاكُ

والحبَاك والحَبِيكة الطريقة في الرّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك والْحَبَكة مثل العَبَكة وهي الحبّة من السويق، عن الجوهري. وروي عن الحسن في قوله: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ﴿ الْحُبْكِ ﴾ و ﴿ الحِبِكِ ﴾ و ﴿ الْحِبْكِ ﴾ والحِبَك والحِبُك [وقرأ أيضاً ﴿ الْحُبُك ﴾] كالجماعة. وروي عن عِكْرمة وأبي مِجْلَز ﴿ الحُبك ﴾. و ﴿ الحُبُك ﴾ واحدتها حَبيكة؛ ﴿والْحُبْك﴾ مخفّف منه. و ﴿الحِبَك﴾ واحدتها حِبْكة. ومن قرأ ﴿الْحُبَك﴾ فالواحدة حُبْكة كبُرقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلْمة وظُلَم. ومن قرأ ﴿ الحِبِك ﴾ فهو كإبل وإطِل[3] و ﴿ الحِبْك ﴾ مخففة منه

(١) النجم: كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ريح خريق: شديدة. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء أي برز. والبيت في وصف غدير.

(٢) راجع ١٦٩/١٩. (٣) الإطل: الخاصرة كلها. وقيل: غير ذلك. (٤) البيت لأبي دؤاد يصف فرساً. والكتد - بفتح التاء وكسرها -: مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس.

ومن قرأ ﴿الحِبُك﴾ فهو شاذ إذا ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمول على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر ﴿الْحُبُك﴾ فضم الباء. وقال جميعه المهدوي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم الذي هو ﴿والسَّمَاءِ﴾ أي إنكم يا أهل مكة ﴿فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب. وقيل: نزلت في المقتسمين. وقيل: ٱختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل ٱفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين. وقيل: ٱختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه. وقيل: المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف؛ عن الحسن وغيره. وقيل: المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين. وقيل: المعنى يُصرَف عن ذلك الاختلاف مَن عصمه الله. أَفَكه يَأْفِكُه أَفْكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾(١). وقال مجاهد: معنى ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْنَ فساد العقل. الزمخشري: وقرىء ﴿يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ﴾ أي يحرمه من حرم؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع. والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ في «التفسير»: لُعِن الكذّابون. وقال ٱبن عباس: أي قُتِل المرتابون؛ يعني الكهنة. وقال الحسن: هم الذين يقولون لسنا نبعث. ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين. وقال الفرّاء: معنى ﴿قُتِلَ﴾ لُعِن؛ قال: و ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمداً مجنون كذّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. قال ٱبن الأنباري: علّمنا الدعاء عليهم؛ أي قولوا: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ وهو جمع خارص والْخَرْص الكذب والْخَرّاص الكذّاب، وقد خَرَصَ يَخْرُص بالضم خَرْصاً أي كَذَب؛

(١) راجع ١٦/ ٢٠٥.

يقال: خَرَص وٱختَرَص، وخَلَقَ وٱختلَق، وبَشَك وٱبْتَشك، وسَرَج وٱسْتَرج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحاس. والْخَرْص أيضاً حَزر ما على النخل من الرطب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الْخِرص بالكسر؛ يقال: كم خِرْص نخلك والخرّاص الذي يخرصها فهو مشترك. وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه في ﴿الأنعام﴾[1] ومنه الْخَرِيص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرُص حبّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخِرْص العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخرِص الذي به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص، أي جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص. ويقال للبرد بلا جوع خَرَص. والْخِرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الْخِرْصان. ويدخل في الْخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعي الحَدْس والتخمين. وقال ٱبن عباس: هم المقتسمون الذين ٱقْتسموا أعقاب مكة، وٱقتسموا القول في نبي الله ﷺ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه. ومنه نهر غَمْر أي يغمر من دخله، ومنه غَمَرات الموت. ﴿سَاهُونَ﴾ أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي متى يوم الحساب؛ يقولون ذلك ٱستهزاءً وشكًّا في القيامة. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ نصب ﴿يَوْمَ﴾ على تقدير الجزاء أي هذا الجزاء ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يُحرَقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيّ بني لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم، أو رفع على البدل من ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾. وقال الزجاج: يقول يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو في موضع رفع، فإنما ٱنتصب هذا وهو في المعنىٰ رفع. وقال ٱبن عباس: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُعَذَّبون. ومنه قول الشاعر:

كلُّ ٱمرِىءٍ من عبادِ اللَّهِ مُضطَهدٌ ... بِبطـنِ مكـة مقهـورٌ ومفتـونٌ

(١) راجع ٧/ ٧١.

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم؛ قاله ٱبن زيد. مجاهد: حريقكم. ٱبن عباس أي تكذيبكم يعني جزاءكم. الفرّاء: أي عذابكم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: ﴿هَذَا﴾ ولم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

[١٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به. ﴿آخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن عباس وسعيد بن جبير: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي عاملين بالفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ٱبن عباس: المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم.

[١٧] ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون؛ والهجوع النوم ليلاً، والتَّهْجَاع النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فَمَا أَطْعَـمُ نَـوْمـاً غيـرَ تَهْجَـاعِ

وقال عمرو بن مَعْدي كرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيْحانة الدَّاعِي السَّميعُ يُـؤَرِّقُنِـي وأَصحـابـي هُجُـوعُ

يقال: هَجَع يَهْجَعُ هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغُ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام؛ قاله الجوهري. وٱختلف في ﴿ما﴾ فقيل: صلة زائدة ـ قاله إبراهيم النخعي ـ والتقدير كانوا قليلاً من الليل

يهجعون؛ أي ينامون قليلاً من الليل ويصلّون أكثره. قال عطاء: وهذا لما أمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرّ[١] يحتجِز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٢] الآية. وقيل: ليس ﴿ما﴾ صلة بل الوقف عند قوله: ﴿قليلاً﴾ ثم يبتدىء ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فـ﴿ـما﴾ للنفي وهو نفي النوم عنهم البَتّةَ. قال الحسن: كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر. روي عن يعقوب الحضرمي أنه قال: ٱختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً﴾ معناه كان عددهم يسيراً ثم ٱبتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على معنى من الليل يهجعون؛ قال ٱبن الأنباري: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، وبعد فلو ٱبتدأنا ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون ﴿ما﴾ جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوّله بعض الناس ـ وهو قول الضحاك ـ من أن عددهم كان يسيراً يكون الكلام متصلاً بما قبل من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كان المحسنون قليلاً، ثم ٱستأنف فقال: ﴿مِنَ اللَّيلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وعلى التأويل الأوّل والثاني يكون ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾، وكذلك إن جعلت ﴿قَلِيلاً﴾ خبر كان وترفع ﴿ما﴾ بقليل؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. فـ﴿ـما﴾ يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من ٱسم كان، التقدير كان هجوعهم قليلاً من الليل، وٱنتصاب قوله: ﴿قَلِيلاً﴾ إن قدرت ﴿ما﴾ زائدة مؤكدة بـ﴿ـيَهْجَعُونَ﴾ على تقدير كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدر ﴿ما﴾ زائدة كان قوله: ﴿قَلِيلاً﴾ خبر كان ولم يجز نصبه بـ﴿يَهْجَعُونَ﴾؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ﴿ـيَهْجَعُونَ﴾ مع تقدير ﴿ما﴾ مصدراً قدمت الصلة على الموصول. وقال أنس وقتادة في تأويل الآية: أي كانوا يصلّون بين العشاءين: المغرب والعشاء. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين. وقاله ٱبن وهب. وقال مجاهد:

(١) في ز، ل، ن: «أبو بكر». (٢) راجع ١٩/ ٣٢.

نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبيّ ﷺ ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن علي بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمة. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ٱبن عباس ومُطرِّف: قَلّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها.

الثانية ـ روي عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ في منامه فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ... ولم تَدر في أيّ المجالِسِ تنزِلُ

وروي عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة، ثم ٱنتهيا إلى النيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذا؛ فقالا لي: إنها ليست حُلّة لباس إنما هي رضوان الله يحلّ على كل مصلّ. ويروى عن أبي خَلّاد أنه قال: حدّثني صاحب لي قال: فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثِّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوههم، وأشرقت ألوانهم، وعليهم الحلل من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناس مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّباً لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصِحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرف مقامهم! ثم ٱستيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان؛ أي يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن. والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء. وقد مضى في ﴿ آل عمران ﴾[1] القول فيه. وقال ٱبن عمر ومجاهد: أي يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة ٱستغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ مدّوا الصلاة من أوّل الليل

(١) راجع ٤/٣٨.

إلى السحر ثم استغفروا في السحر. ٱبن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون في مسجد النبيّ ﷺ. ٱبن وهب عن ٱبن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا: كانوا يَنْضَحُون لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلّون آخر الليل. الضحاك: صلاة الفجر. قال الأحنف بن قيس: عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ﴾ وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ مدح ثالث. قال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة. وقيل: إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِماً، أو يُقْرِي به ضيفاً، أو يحمل به كَلاًّ، أو يغني محروماً. وقاله ٱبن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. ٱبن العربي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة ﴿سأل سائل﴾: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[١] والحق المعلوم هو الزكاة التي بيّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما. ﴿وَالْمَحْرُومُ﴾ الذي حُرم المالَ. وٱختلف في تعيينه؛ فقال ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم. وقالت عائشة رضي الله عنه: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسر له مكسبه؛ يقال: رجل مُحارَف بفتح الراء أي محدود محروم، وهو خلاف قولك مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه في معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلِم بحاجته. وقال الحسن ومحمد بن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم. روي أن النبيّ ﷺ بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾. وقال

(١) راجع ١٨/ ٢٩١.

عكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وقال أبو قِلابة: كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه: هذا المحروم فأقسموا له. وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يروى عن ابن عباس أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حميد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره. وروى ابن وهب عن مالك: أنه الذي يحرم الرزق، وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال. وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ، رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي. وأصله في اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة:

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ أَنَّى تَوَجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ذكره الثعلبي.

[٢٠] ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[٢٢] ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها أنه

قدّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة. والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيّهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل: التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين. وقال قتادة: المعنى من سار في الأرض رأى آياتٍ وعبراً، ومن تفكر في نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله. ٱبن الزبير ومجاهد: المراد سبيل الخلاء والبول. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط؛ فتلك الآية في النفس. وقال ٱبن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾[1]. السدي: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي ٱختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما رُكز فيها[2] من العقول، وما خصّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خُلِقت له، وما سَوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا جسا[3] شيء منها جاء العجز، وإذا ٱسترخى أناخ الذل ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4]. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته. وقيل: إنه نُجْح العاجز، وحرمان الحازم.

قلت: كل ما ذكر مراد في الاعتبار. وقد قدّمنا في آية التوحيد من سورة ﴿البقرة﴾[5] أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالمَ الصغير شيء إلا وله نظير في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغني لمن تدبر.

---

(١) راجع ١٤/١٧. (٢) في الأصل المطبوع: «وما فيها من العقول».
(٣) جست اليد تيبست عظامها وقل لحمها. (٤) راجع ١٢/١١٠. (٥) راجع ٢/٢٠٢.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق. قال سعيد بن جبير: كل عين قائمة فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللّهِ رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم. وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ معناه وفي المطر رزقكم؛ سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر[1]:

إذا سَقط السماءُ بأرضِ قَوْمٍ   رعيناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ٱبن كيسان: يعني وعلى ربّ السماء رزقكم؛ نظيره: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2]. وقال سفيان الثوري: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. وعن سفيان قال: قرأ واصل الأحدب ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً فإذا هو في الثالثة بدوخلةِ[3] رُطبٍ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما. وقرأ ٱبن محيصن ومجاهد ﴿وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ﴾ بالألف وكذلك في آخرها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ﴾. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة. الضحاك: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجنة والنار. وقال ٱبن سيرين: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من أمر الساعة. وقاله الربيع.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أكّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله: ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، كالذي

---

(١) هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك؛ وسمي معوّد الحكماء لقوله في هذه القصيدة:

أعـود مثلهـا الحكمـاء بعـدي   إذا مـا الحـق فـي الحـدثـان نـابـا

(٢) راجع ٦/٩.

(٣) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها): سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب.

يرى في المرآة ، وٱستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدويّ والطنين في الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعتَرض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطِق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغني أن نبيّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾» . وقال الأصمعي : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابيّ جِلفٌ جافٍ على قعود له متقلِّداً سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أَصْمَع، قال : أنت الأصمَعي؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاْتل عليّ منه شيئاً ؛ فقرأت ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ فقال يا أصمعي حسبك !! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال: أعنِّي على توزيعها ؛ ففرّقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فمقتُّ نفسي ولمتُها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر ، فسلّم عليّ وأخذ بيدي وقال: ٱتل عليّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت ﴿وَالذَّارِيَاتِ ﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ قال فصاح الأعرابي وقال : يا سبحان الله ! من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجت بها نفسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء فقال : اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني بـه ؛ فشبِـع ورَوِي من غير طعام ولا شراب . وعـن أبـي سعيـد الخـدريّ قـال : قـال النبيّ ﷺ : « لـو أن أحدكـم

فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» أسنده الثعلبي. وفي سنن ٱبن ماجه عن حبة وسواء ٱبني خالد قالا: دخلنا على النبيّ ﷺ وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشر[1] ثم يرزقه الله». وروي أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابية فقالت: مالي أراكم قد نكستم رءوسكم، وضاقت صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ ... صَمًّا مُلَمْلِمَةٍ مَلْسَا نَواحِيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ ... حتى تؤدي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكها ... لَسَهَّلَ الله في المرقَى مَرَاقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها ... إنْ لم تَنلْه وإلاَّ سوف يأتِيها

قلت: وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ ﷺ، فسمع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيّ ﷺ وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب؛ وقد ذكرناه في سورة ﴿ هود ﴾[2]. وقال لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ الآية. وقد مضى في ﴿ لقمان ﴾[3] وقد ٱستوفينا هذا الباب في كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة » والحمد لله. وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ قراءة العامة ﴿مِثْلَ﴾ بالنصب أي كمثل ﴿مَا أَنَّكُمْ﴾ فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و ﴿ما﴾ زائدة؛ قاله بعض الكوفيين. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي لَحَقٌّ حقًّا مثل

(١) القشر هنا الثياب.
(٢) راجع ٩/٦.
(٣) راجع ١٤/٦٦.

نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبنيٌّ بُني حين أضيف إلى غير متمكن و ﴿ما﴾ زائدة للتوكيد. المازني: ﴿مِثْلَ﴾ مع ﴿ما﴾ بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك. وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن من العرب من يجعل مِثلاً منصوباً أبداً؛ فتقول: قال لي رجلٌ مثلك، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل][1]. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش ﴿مِثْلُ﴾ بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و ﴿مِثْلَ﴾ مضاف إلى ﴿أَنَّكُمْ﴾ و ﴿ما﴾ زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً. ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿لحَقٌّ﴾.

[٢٤] ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط. ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي ألم يأتك وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[2]. وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في ﴿هود﴾[3] ﴿والحجر﴾[4]. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي عند الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[5] قال آبن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ زاد عثمان بن حَصِين ـ ورفائيل عليهم الصلاة والسلام. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه تسعة. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملَك آخر.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس. (٢) راجع ١٩/١١٦.
(٣) راجع ٩/٦٢. (٤) راجع ١٠/٣٥. (٥) راجع ١١/٢٨١.

قال ٱبن عباس: سماهم مكرمين لأنهم غير مذعورين. وقال مجاهد: سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه. قال عبد الوهاب: قال لي علي بن عياض: عندي هريسة ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسن رأيي فيها؛ قال: ٱمض بنا؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعني إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا؛ قال: هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكرَم، والمُكرِم إنما يُخدم بالنفس؛ ٱنظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ تقدّم في ﴿الحجر﴾[1]. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام. ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردّي لكم سلام. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿سِلْمٌ﴾ بكسر السين. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون؛ أي غرباء لا نعرفكم. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم، فقال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير ٱستئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر[2]:

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ مِنَ الحوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ قال الزجاج: أي عدل إلى أهله. وقد مضى في ﴿والصافّات﴾[3]. ويقال؛ أراغ وٱرتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغُ أي تريد وتطلب، وأراغ إلى كذا أي مال إليه سرًّا وحاد، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى. ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما في ﴿هود﴾: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[4]. ويقال: إن إبراهيم ٱنطلق إلى منزله كالمستخفي[5] من ضيفه، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام.

(١) راجع ١٠/٣٤. (٢) هو الأعشى.
(٣) راجع ١٥/٩٤. (٤) راجع ٩/٦٣ و ٦٨.
(٥) في ن: «كالمستحي».

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل. ﴿فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامة مالِ إبراهيم البقر، وٱختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة. ذكره القشيري. وفي «الصحاح»: العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة، عن أبي الجراح، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل، وعِجْل قبيلة من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أحس منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر لما لم يَتَحرَّموا بطعامه. ومن أخلاق الناس: أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه. وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن. قال: كلوا وأدّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تسمُّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا ٱتخذك الله خليلاً. وقد تقدّم هذا في ﴿هود﴾. ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ أي بولد يولد له من سارة زوجته. وقيل: لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم، فدعوا الله فأحيا العجل الذي قرّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدّاد: أن جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار. ومعنى ﴿عَلِيمٍ﴾ أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحق. وقال مجاهد وحده: هو إسمعيل وليس بشيء فإن الله تعالى يقول: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ﴾[1]. وهذا نص.

[٢٩] ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة وضجة؛ عن ٱبن عباس وغيره. ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرنَّة والتأوّه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان. قال الفراء: وإنما هو كقولك أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة أي في جماعة من النساء[2] تسمع كلام الملائكة. قال

(١) راجع ٩٩/١٥. (٢) في ن: «الناس.

الجوهري: الصّرة الضجّة والصيحة، والصَّرة الجماعة، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره، قال أمرؤ القيس:

فَـأَلْحَقَـهُ بـالهَـادِيَـاتِ ودُونَـهُ جَوَاحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ[1]

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة. وصرة القيظِ شدّة حَرِّه. فلما سمعت سارة البشارة صَكّت وجهها؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وقال أبن عباس: صَكّت وجهها لطمته. وأصل الصّك الضرب؛ صكّه أي ضربه؛ قال الراجز[2]:

يـا كَـرَوَانـاً صُـكَّ فـاكْبَـأَنّـا

قال الأموي: كَبَن الظبي إذا لطأ بالأرض وأكْبَأَنَّ أنقبض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أتلد عجوز عقيم. الزجاج: أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد، كما قالت: ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[3]. ﴿قَالُوا كَذَلِكِ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناكِ ﴿قَالَ رَبّكِ﴾ فلا تَشكّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ أبن مائة سنة وقد مضى هذا. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه.

[٣١] ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته، والهاديات أوائل بقر الوحش، وجواحرها متخلفاتها، ولم تزيل، أي لم تتفرق؛ يقول: لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق.

(٢) هو مدرك بن حصن. وتمامه:

فشـن بـالسلـح فلمـا شنـا

(٣) راجع ٩/٦٩.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريد قوم لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أي لنرجمهم بها. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمَةً. قيل: كانت مخططة بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة، وقيل: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر أسم من يهلك به. وقيل: عليها أمثال الخواتيم. وقد مضى هذا كله في ﴿هود﴾[١]. فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخ الآجر، قاله أبن زيد؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ على ما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾. وقيل: هي الحجارة التي نراها وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البَرَد. حكاه القشيري.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه وفيه إضمار؛ أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت. وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[١]. وقيل: الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . فسماهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في ﴿البقرة﴾[٢] وغيرها. وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ

---

(١) راجع ٩/٨٢ و ٧٩ و ٢١٥. (٢) راجع ١/١٩٣.

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في «صحيح مسلم» وغيره. وقد بيناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخربة. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون[٢].

[٣٨] ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾.

[٣٩] ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩﴾.

[٤٠] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بيِّنة وهي العصا. وقيل: أي بالمعجزات من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي بمجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قول مجاهد، ومنه قوله: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ[٣] شَدِيدٍ﴾ يعني المنعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِي ... وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِن زَمَانِي[٤]

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[٥] وقاله المؤرِّج. الجوهري: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

---

(١) راجع ١٣/٣٤٣. (٢) في ح «المشفقون». (٣) راجع ٩/٧٨.
(٤) في رواية: ولا وصلت إليّ يد الزمان. (٥) راجع ١٠/٣٢١.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿أو﴾ بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً. قاله المؤرج والفراء، وأنشد بيت جرير:

أَثَعْلَبَــةَ الفَــوَارِسَ أَوْ رِيَــاحَــا عَدَلْتَ بِهِم طُهَيَّةَ والْخِشَابَا[1]

وقد توضع ﴿أو﴾ بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[2] والواو بمعنى أو، كقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ وقد تقدّم جميع هذا[3]. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي طرحناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

[٤١] ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي وتركنا في عاد آية لمن تأمل. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمة فيها ولا بركة ولامنفعة؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجنوب. روى ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ ﷺ قال: «الريح العقِيم الجَنُوب» وقال مقاتل: هي الدبور كما في «الصحيح» عن النبيّ ﷺ «نُصِرت بالصَّبَا وأهلِكت عاد بالدَّبُور». وقال ابن عباس: هي النكباء. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً أنها الصَّبا؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد. ومنه قول الشاعر[4]:

---

(١) طهية ـ كسمية ـ: حي من تميم نسبوا إلى أمهم، والخشاب: بطون من تميم أيضاً.

(٢) راجع ١٩/١٤٧. (٣) راجع ٥/١٧.

(٤) هو جرير يرثي ابنه.

تَرَكْتِنِي حِينَ كَفَّ الدَّهرُ مِنْ بَصَرِي وإذْ بَقِيتُ كعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسدي: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم الرَّماد. وقال يمانٍ: ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها. ويقال: للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر، والْمَرَمَّة بالفتح لغة فيه. وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ بالكسر رِمَّة فهو رمِيم، قال [الشاعر][(١)]:

ورَأى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً تَبْقَى عليهِ والعِظامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام. ونظير هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ حسب ما[(٢)] تقدم.

[٤٣] ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وفيهم أيضاً عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود[(٣)]: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾. وقيل: معنى ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلِك. قال الحسين بن واقد: كلّ صاعقة في القرآن فهو العذاب. وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائي ﴿الصَّعْقَة﴾ يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقاً أي غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء[(٤)] أي ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب وقد مضى في ﴿البقرة﴾[(٥)] وغيرها. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ قيل: معناه

(١) من ن. (٢) راجع ٢٠٦/١٦. (٣) راجع ٦٠/٩.
(٤) في ح، ز، ل، ن: «إذا ألقت». (٥) راجع ٢١٩/١.

من نهوض. وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه. وقال ابن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر.

[٤٦] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بالخفض؛ أي وفي قوم نوح آية أيضاً. الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾ أو الهاء في ﴿أَخَذْنَاهُ﴾ أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو ﴿نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى اذكر.

[٤٧] ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ لما بيّن هذه الآيات قال: وفي السماء آيات وعِبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان. ومعنى ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سَعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليله: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ[1] قَدَرُهُ﴾. وقال القُتَبي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ أي صار ذا سَعة وغِنًى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال. ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾

(١) راجع ٣/٢٠٣.

أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي فنعم الماهدون نحن لهم[١]. والمعنى في الجمع التعظيم؛ مَهدت الفراشَ مَهْداً بَسَطته ووطّأته، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين. قال ٱبن زيد: أي ذكراً وأنثى وحلواً وحامضاً ونحو ذلك. مجاهد: يعني الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجنّ والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشيّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأراييح والأصوات. أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة. وقيل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ٱبتداء ولا ٱنتهاء؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ[٢] شَيْءٌ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

[٥٠] ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾.

[٥١] ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾.

[٥٢] ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾.

[٥٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾.

[٥٥] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفِرّوا إلى اللَّهِ إنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى: لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد؛ أي قل لقومك: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي فِرّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ٱبن عباس: فِروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه فِرّوا منه إليه وٱعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ ٱخرجوا إلى مكة. وقال الحسين

---

(١) لفظة «لهم» ساقطة من ز. (٢) راجع ١٦/٨.

ٱبن الفضل: ٱحترزوا من كل شيء دون الله فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورّاق: فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرّوا مما سوى الله إلى الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ أمر محمداً ﷺ أن يقول هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطاب من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ٱبن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ هذا تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم. والكاف من ﴿كَذَلِكَ﴾ يجوز أن تكون نصباً على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذي أنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير الأمر كذلك أي كالأول. **والأوّل** ـ تخويف لمن عصاه من الموحِّدين، **والثاني** ـ لمن أشرك به من الملحِدين. والتمام على قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب. وتواطئوا عليه؛ والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يوصِ بعضهم بعضاً بل جَمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم وٱصفح عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوّل قول الضحاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة. وقال مجاهد: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أي ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي بالعِظة فإن العِظة ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قتادة: ﴿وَذَكِّرْ﴾ بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ به ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

[٥٦] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[1] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾[2] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفي قراءة عبد الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ وقال عليّ رضي الله عنه: أي وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ لآمرهم بالعبادة. وأعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً﴾[3]. فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً؛ رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفوني.

(١) راجع ٧/ ٣٢٤. (٢) راجع ١٦/ ٣٤٨. (٣) راجع ٨/ ١١٩.

الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ[١] اللَّهُ﴾ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[١] وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلا لآمرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلُوا عليه من الشّقوة والسعادة؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية. وعن الكلبي: أيضاً: إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدّة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبد بيِّن العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبد. قال[٣]:

وظِيفـاً وظِيفـاً فـوقَ مَـوْرٍ مُعَبَّـدِ

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبداً. وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك. فمعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليذِلّوا ويخضعوا ويعبدوا. ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلة أي رزقاً بل أنا الرزّاق والمعطي. وقال ٱبن عباس وأبو الجوزاء: أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها. وقيل: المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ٱبن مُحيصن وغيره ﴿الرَّازِقُ﴾. ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي الشديد القويّ. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعي ﴿الْمَتِينِ﴾ بالجر على النعت للقوّة. الباقون بالرفع على النعت لـ ﴿ـالرَّزَّاق﴾، أو ﴿ذُو﴾ من قوله: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ أو يكون خبر ٱبتداء محذوف؛ أو يكون نعتاً لاسم إنّ على الموضع، أوخبراً بعد خبر. قال الفراء: كان

---

(١) راجع ١٦/ ١٢٣ و ٦٤. (٢) راجع ١٤/ ٨٠. (٣) هو طرفة بن العبد، والبيت من معلقته وصدره:

تبـاري عتـاقـاً نـاجيـات وأتبعـت

الوظيف عظم الساق. وقوله أتبعت وظيفاً وظيفاً أي أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت. والمور: الطريق.

حقه المتينة فذكّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكم الفتل؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرّاء:

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِسْتُ أَثْوُبَا حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا
مِنْ ريطةٍ وَالْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا

فذكّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنف من الثياب؛ ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾[١] أي وعظ ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[٢] أي الصياح والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة. وقال ٱبن الأعرابي: يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلو العظيمة، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيب من هذا؛ قال الراجز:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فلنا الْقَلِيبُ

وقال عَلْقمة:

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر[٣]:

لَعَمْرُكَ والمَنَايَا طَارِقَاتٌ لِكُلِّ بَنِي أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنُوب الفرس الطويل الذّنب، والذَّنُوب النصيب، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب الدَّلو الملآى ماء. وقال ٱبن السكيت: فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر، ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب؛ والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنَائِب، مثل قَلُوص وقَلائص. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[٤]﴾ فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم ٱنتقامه، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم، والخزي القائم، الذي لا ٱنقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد. تم تفسير سورة ﴿والذاريات﴾ والحمد لله.

---

(١) راجع ٣/٣٥٩. (٢) راجع ٩/٦١.
(٣) قائله أبو ذؤيب. (٤) راجع ٧/٢٣٧ و ٩/٢٧.